مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (١).

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (٢).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" (٣). أما بعد:

فعلم السيرة النبوية من أشرف العلوم منزلة، وأعلاها قدرًا؛ إذ به يتحقق الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتصديقه فيما جاء به، واتباعه فيما أمر ونهى، والاقتداء به في كل في تصرفاته.

فالسيرة النبوية هي تصوير لحياته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته ونشأته، مرورا ببعثته، ومعجزاته، وموقف قومه من دعوته، وموقفه منهم، وأساليبه صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله تعالى، ومنهجه في تربية أصحابه، وهجرته صلى الله عليه وسلم، وجهاده، وأخبار أصحابه الذين شاركوه هذا الجهاد، وأخبار غزواته ومعاركه، وانتهاء بوفاته صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة النساء: آيه رقم:١.

(٢) سورة آل عمران آيه رقم: ١٠٢.

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠- ٧١.

وبعلم السيرة – أيضا- أيضا يتحقق الفهم الصحيح الواعي للقرآن الكريم، وتذوق روحه ومقاصده؛ فتتكون عند المسلم صورة صادقة لمراد الشارع الحكيم.

وبدراسة علم السيرة؛ يستطيع المسلم أن يفهم تاريخه الإسلامي؛ حيث إن سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – هي المدخل لدراسة تاريخ الإسلام، وبقدر ما يحيط الدارس علمًا بهذه السيرة، ويفهم أسرارها وأخبارها بقدر ما يستطيع أن يفهم التاريخ الإسلامي في جميع مراحله في كل زمان ومكان.

وانطلاقا من هذه المكانة العظيمة لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإني أقدم هذا الكتاب – الذي يتناول المرحلة المكية من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم – إلى القارئ الكريم، سائلا المولى سبحانه أن ينفع به طلاب العلم الشريف عامة وطلاب جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية خاصة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء الصراط.

المؤلف

تمهيد

أولا: تعريف السيرة النبوية:

السيرة لغة: هي السنة أو الطريقة أو الحالة التي يكون الشيء عليها، قال تعالى:" قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى" [طه :٢١] أي حالتها التي كانت عليها.

قال ابن فارس:" السين والياء والراء أصل يدل على مضي وجريان ... والسيرة الطريقة في الشيء والسنة لأنها تسير وتجري" (١).

وقال الراغب:" والسيرة الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره غريزياً كان أو مكتسباً، يقال: فلان له سيرة حسنة وسير ة قبيحة، وقوله:" سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى" [سورة طه / ٢١] أي الحالة التي كانت عليها من كونها عودا" (٢).

علم السيرة اصطلاحا:

هو ذلك العلم الذي يتناول أنباء النبي صلى الله عليه وسلم من مولده، ونشأته، وبعثته، وما أتاه الله من معجزات وموقف قومه من الدعوة، وموقفه منهم، وأساليبه صلى الله عليه وسلم في الدعوة، ومنهجه في تربية أصحابه وتعليمهم، وأخبار المسلمين الأوائل، وبيان ما لقبه هؤلاء، وهجرته صلى الله عليه وسلم من بلد الله الحرام مكة إلى المدنية المنورة، وجهاده في سبيل نشر الدين الذي بعث به، وأخبار أصحابه الذين شاركوه هذا الجهاد، وأخبار غزواته ومعاركه ووفاته صلى الله عليه وسلم" (٣).

ثانيا: أهمية دراسة السيرة النبوية:

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ١٢٠)، وانظر: لسان العرب (٤/ ٣٩٠).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص ٢٠٠).

(٣) انظر: أهمية دراسة السنة النبوية والعناية بها (ص٦).

إن دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليس المقصود منها الوقوف على الأحداث التاريخية التي وقعت في تلك المفترة، ولا مجرد سرد ما وقع من طريف القصص والأحداث؛ وإنما الغرض منها أن يعيش المسلم الحقيقة الإسلامية الصحيحة، متجسدة في شخصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

ولتوضيح هذا الغرض؛ فإنه يمكننا حصر الأهداف التفصيلية في النقاط الآتية:

١ - الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم:

لا شك أن الإيمان به صلى الله عليه وسلم ركن من أركان الإيمان، وفرض من فروض الدين التي لا ينعقد إيمان المرء ولا يتم دينه إلا به، قال تعالى:" إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً" [الفتح: ٨-٩].

وفي موضع آخر يبين سبحانه مراده من المرسل إليهم تجاه من أرسله إليهم؛ هو الإيمان به ومؤازرته في دعوته واتباع سبيله، وأن ذلك سبيل تحصيل الهداية وإدراك الفلاح ونيل الأجر الكبير، فيقول تعالى: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [الأعراف:١٥٧- ١٥٨].

وبعد أن خاطب الله الناس كافة والخلق جميعا بوجوب الإيمان بالرسل ونصرتهم ومؤازرته؛ خص المؤمنين بالخطاب وألزمهم بنفس المراد، حيث يقول تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ

قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهَّ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً". [سورة النساء:١٣٦] .

وفي التفسير الوسيط:" الخطاب في الآية للمؤمنين كافة، والمراد من قوله: (آمِنُوا) استمروا، أو اثبتوا على إيمانكم بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله ... "[١].

ويقول الشيخ المراغي:" وقيل إن الخطاب فيها للمؤمنين كافة، والمعنى ازدادوا في الإيمان طمأنينة ويقينا وآمنوا برسوله خاتم النبيين وبالقرآن الذي نزل عليه وبالكتب التي نزلها على رسله من قبله، فإنه لم يترك عباده في زمن ما محرومين من البينات والهدى[٢].

وإذا كان الإيمان به صلى الله عليه وسلم فرضا من فروض الدين وركنا من أركان الإيمان، فلابد أن يقوم هذا الإيمان على الإقناع العقلي ممتزجا باليقين الوجداني، وكلاهما لا يقوم ولا يتحقق إلا بعد التعرف على سيرته والوقوف على صفاته ودعوته، والعلم بأحواله وأخباره، ومن هنا تأتي فرضية دراسة السيرة النبوية.

إن المسلم كل المسلم لا يكمل إيمانه، ولا يحيا وجدانه، ولا يرجى خيره وإحسانه لنفسه ولأهله ولأوطانه، إلا إذا عرف سيرة رسوله المصطفى ونبيه المجتبى جملة أو تفصيلا، ثم تأسي بما علمه منها في سلوكه وأخلاقه، لأن المسلم العالم مهما بلغ من العلم بغير الاستنارة بهدي النبي وسنته يكون كالتائه الذي يتخبط في دياجير الظلمات [٣].

---

(١) التفسير الوسيط (٢/ ٩٣٨).

(٢) تفسير المراغي (٥/ ١٨٠).

(٣) سيرة الرسول ومعالمها من القرآن الكريم والسنة المطهرة (ص ٩).

٢- **فهم شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام** من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها، للتأكد من أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن مجرد عبقري سمت به عبقريته بين قومه، ولكنه قبل ذلك رسول أيّده الله بوحي من عنده وتوفيق من لدنه [١].

٣- محبته صلى الله عليه وسلم

إن محبة النبي صلى الله عليه وسلم وإيثاره بالحب - على من سواه - فرض على كل مسلم ومسلمة.

قال تعالى:" قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُّ بِأَمْرِهِ وَاللهُّ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" [سورة التوبة / ٢٤].

قال القاضي عياض:"فَكَفَى بِهَذَا حَضًّا وَتَنْبِيهًا وَدَلَالَةً وَحُجَّةً على التزام مَحَبَّتِهِ وَوُجُوبِ فَرْضِهَا، وَعِظَمِ خَطَرِهَا، وَاسْتِحْقَاقِهِ لَهَا صلّى الله عليه وسلم، إذ قرّع الله تَعَالَى مَنْ كَانَ مَالُهُ وَأَهْلُهُ وَوَلَدُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ وَأَوْعَدَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى «فتربصوا حتّى يأتي الله بأمره» ثُمَّ فَسَّقَهُمْ بِتَمَامِ الْآيَةِ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ مِمَّنْ ضل ولم يهده الله" [٢].

وجاءت السنة المطهرة بجملة من الأحاديث التي تؤكد وجوب هذه المحبة، وتدعوا إلى تقديم محبى النبي صلى الله عليه وسلم على من سواه.

---

(١) فقه السيرة، للبوطي (ص ١٥).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٤٣).

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"(١).

وعن أبي عَقِيلٍ زُهْرَةُ بْنُ مَعْبَدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبْدَ اللهِ بْنَ هِشَامٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الآنَ يَا عُمَرُ"(٢).

وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذه المحبة المشروطة للإيمان الصحيح رهن بمعرفة عظمة النبي صلى الله عليه وسلم قدر ما تطيقه ذات المحب، حيث تكون المحبة على قدر المعرفة.

يقول الحافظ ابن حجر معلقا على حديث:" لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " وفي الحديث إيماء إلى فضيلة التفكر، فإن الأحبية المذكورة تعرف به، وذلك أن محبوب الإنسان إما نفسه وإما غيره.

أما نفسه فهو أن يريد دوام بقائها سالمة من الآفات، هذا هو حقيقة المطلوب وأما غيرها فإذا حقق الأمر فيه فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفة حالاً ومآلا.

---

(١) أخرجه لبخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان (١/ ١٢ح ١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والوالد والناس أجمعين (١/ ٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم (٨/ ١٢٩ح ٦٦٣٢).

فإذا تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إما بالمباشرة، وإما بالسبب علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات، فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره، لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره، ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه، ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم من هذا المعنى أتم لأن هذا ثمرة المعرفة، وهم بها أعلم [١].

وعليه فإنه يتحتم على كل مؤمن دراسة السيرة النبوية، والإلمام بجوانبها، والتفقه في مباحثها، والبصر بأحداثها، وسبر أغوار أسرارها، وجمع همة القلب على التعايش مع مشاهدها، لتثمر هذه الدراسة المعرفة به والحب له صلى الله عليه وسلم.

٤- تحصيل القدوة الحسنة:

بدراسة السيرة النبوية دراسة واعية؛ يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل الأعلى، والقدوة الحسنة في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة، كي يجعل منها دستورا يتمسك به ويسير عليه ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في ناحية من نواحي الحياة فإنه واجد كل ذلك في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلم على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال. ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كلها إذ قال: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [الأحزاب:٢١] [٢].

٥- الفهم الواعي للقرآن الكريم:

---

(١) فتح الباري (١/ ٥٩).

(٢) فقه السيرة، للبوطي (ص١٥)، فقه السيرة، الغضبان (ص١٥).

بدراسة سيرة النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يجد المسلم ما يعينه على فهم القرآن الكريم، وتذوق روحه ومقاصده، وعندئذ تتجلى له معانيه تجلية حقيقية، ويتكون لديه كصورة صادقة لمقصود الشارع، إذ إن كثيرا من الآيات لا يفسرها ويوضح معانيها إلا الأحداث مرت برسول الله صلّى الله عليه وسلم ومواقفه منها[1].

ثالثًا: مصادر السيرة النبوية

والمقصود بمصادر السيرة؛ المراجع التي نستطيع من خلالها تكوين تصور كامل وشامل عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أهم هذه المصادر ما يأتي:

١ – القرآن الكريم:

وهو كلام الله تعالى المنزل على قلب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز بلفظه ومعناه، والمنقول إلينا بالتواتر، والمتعبد بتلاوته، والمتحدى بأقصر سورة منه.

وهو المصدر الأساسي الذي نستمد منه ملامح السيرة النبوية، فقد تعرض القرآن الكريم لنشأة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:" أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" [الضحى: ٥ – ٦]، وتعرض لأخلاقه الكريمة العالية في قوله تعالى:"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" [القلم: ٤]. وتحدث عما لقيه عليه الصلاة والسلام من أذى وعنت في سبيل دعوته، كما في قوله تعالى:" فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" [الحجر: ٨٤-٩٦]، كما ذكر ما كان المشركون ينعتونه به من السحر والجنون صدا عن دين الله عز وجل، كما في قوله تعالى:" وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ " [الحجر: ٦]، وقوله تعالى:" وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ

(١) السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية (ص٢)، فقه السيرة للبوطي (ص١٦).

مَجْنُونٍ"[الصافات: ٣٦]، وقوله تعالى:" وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ" [القلم: ١٥] وغيرها من الآيات التي تعرض لاستهزاء المشركين بالرسول صلى الله عليه وسلم وسخريتهم منه ومن أصحابه رضي الله عنهم.

كما تعرض القرآن لهجرة الرسول في قوله تعالى:" إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة: ٤٠]، وقوله تعالى:" وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ" [محمد: ١٣] وغير ذلك من الآيات.

كما تعرض لأهم المعارك الحربية التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته، فتحدث عن معركة بدر، وأحد، والأحزاب، وصلح الحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين، وتحدث عن بعض معجزاته، كمعجزة الإسراء والمعراج.

كما تحدث عن الصراع الفكري والمادي بين المسلمين واليهود في المدينة وما حولها، في كثير من الآيات التي يضيق المقام عن ذكرها.

وبالجملة فقد تحدث عن كثير من وقائع سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما كان الكتاب الكريم أوثق كتاب على وجه الأرض، وكان من الثبوت المتواتر بما لا يفكر إنسان عاقل في التشكيك بنصوصه وثبوتها التاريخي، فإن ما تعرض له من وقائع السيرة يعتبر أصح مصدر للسيرة على الإطلاق [١].

---

(١) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر (٢٦)، الجامع الصحيح للسيرة النبوية (١/ ١٠٧)، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٤٨).

٢- السنة النبوية الصحيحة وشروحها:

أما المصدر الثاني؛ فهو السنة النبويّة الصحيحة؛ التي اشتملت على أقوال الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخلقية والخُلقية، وكل تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم ابتداء بما قبل مولده، وظهور الإرهاصات التي مهدت لرسالته وانتهاء بوفاته صلى الله عليه وسلم.

وقد شغلت السيرة المطهرة جزء غير قليل من الحديث النبوي الشريف، فالذين جمعوا الحديث لم تخل كتبهم عن ذكر ما يتعلق بحياة النبي صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه وغزواته، وخصائصه، وشمائله وأعماله؛ مما يساعدنا في تكوين فكرة شاملة عن سيرته صلى الله عليه وسلم.

ومن أشهر كتب السنة التي تناولت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ الكتب الستة، وهي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه. ويضاف إليها: موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، فهذه الكتب وخاصة البخاري ومسلم في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق، أما الكتب الأخرى، فقد تضمنت الصحيح والحسن، وفي بعضها الضعيف أيضا[1].

٣- كتب الأدب والشعر العربي المعاصر لزمن النبوة

تضمنت المؤلفات في الأدب العربي، والدواوين الشعرية للشعراء المعاصرين للدعوة والرسالة، قِطَعًا شعرية ونثرية تشير إِلى وقائع في السيرة النبوية، ومن الأهمية بمكان معرفة ذلك، لكن ينبغي أن يتثبت من صحة تلك النصوص، فإِن تلك الكتب قد دونت دون النظر إِلى منهج التثبت، ولم توثق رواياتها، ومع هذا نجد علماء السنة

(١) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر (٢٧)، الجامع الصحيح للسيرة النبوية (١/ ١٠٩).

النبوية يذكرون الأشعار والأقوال الأدبية في كتبهم، فهي من المصادر التي يُحتاج إِليها، ولكن يجب أن يعرف الباحث قدرها ومنزلتها من حيث التوثيق العلمي وصحة الإِسناد، حيث يغلب على بعضها الحكايات، والنوادر، والطُّرف، التي لا يعرف مصدرها ولا تخلو من المبالغات [١].

٤ - كتب السير والتراجم

تعتبر كتب السير والتراجم المصدر المباشر الذي تستقى منه أحداث السيرة عادة. حيث كانت وقائع السيرة النبوية روايات يرويها الصحابة رضوان الله عليهم إلى من بعدهم، وقد اختص بعضهم بتتبع دقائق السيرة وتفاصيلها، ثم تناقل التابعون هذه الأخبار ودونوها في صحائف عندهم، وقد اختص بعضهم بالعناية التامة بها، ثم انتقلت العناية بالسيرة إلى من بعدهم، حتى أفردوها بالتصنيف، ومن أشهر أوائل المصنفين في السيرة محمد بن إسحاق بن يسار (توفي سنة ١٥٢هـ)، وقد اتفق جمهور العلماء والمحدثين على توثيقه، ويعد كتاب (السيرة النبوية) لابن هشام من الناحية العلمية أوفى مصادر السيرة النبوية، وأصحها، وأدقها ، وأقدم كتاب بين أيدينا كذلك.

وفي مجال التراجم فالطبقات الكبرى، والإصابة في تاريخ الصحابة هما الكتابان العمليان اللذان يرفدان السيرة النبوية في توضيح بعض الجوانب الغامضة فيها [٢].

---

(١) صَحِيحُ الأَثَر وجَمِيلُ العبر من سيرة خير البشر (ص٣٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر (ص٢٨)، وفقه السيرة ، للغضبان (ص ١٨).

رابعًا: كتب الدلائل والشمائل والمعجزات والخصائص:

تتناول هذه الكتب جانبا من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ولكنها تعرض السيرة بشكل غير مباشر وبصورة مختصرة في كثير من الأحيان، ومن أشهرها: دلائل النبوة للبيهقي، والشمائل للترمذي، والخصائص الكبرى للسيوطي [١].

(١) فقه السيرة ، للغضبان (ص ١٨).

الفصل الأول: أحوال العرب قبل الإسلام

كان لزاما على من يكتب في السيرة المحمدية، وأحداثها، وآثارها البعيدة، لا في حياة العرب فحسب، بل في حياة البشر جميعهم، أن يعرض عرضا موجزا لتاريخ العرب في الجاهلية من ناحية جغرافية بلادهم، وأحوالهم الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية، حتى يكون الدارس للسيرة على بيّنة من هذه البلاد، وسكانها، الذين اختير منهم خاتم الأنبياء، والذي أرسل بأعظم رسالة إلهية، والتي أحدثت أعظم إصلاح في العالم كله، لم تحدثه رسالة من الرسالات[١].

جزيرة العرب:

كانت ولا تزال شبه جزيرة العرب تحتل موقعا هاما على خريطة الكرة الأرضية؛ إذ أنها تربط بين قارات ثلاث؛ هي آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، وأما من الناحية الحضارية للعالم قبل الإسلام فهي تربط بين الحضارتين السائدتين حينئذ: الحضارة الرومانية، والحضارة الفارسية [٢].

---

١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٣).

٢) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٣)..

الجنس العربي:

والجنس الذي يسكن شبه الجزيرة يسمى (الجنس العربي) وهو أحد الأجناس الساميّة – نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام – ، ولكنه أكثرها محافظة على خصائص الساميين، **ويتكلم اللغة العربية**، وهي إحدى اللغات السامية، ولكنها أيضا أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامي، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة في شبه الجزيرة، وهي طبيعة الانعزالية، والمحافظة على الأنساب والأحساب، وعدم التزوج من غيرهم، أو تزويجه منهم، فقد حرست هذه الحياة الجنس العربي، واللغة العربية من الهجمات التي تعرض لها غير العرب من الساميين وغير اللغة العربية من فروع اللسان السامي [١].

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٥)..

وإذا كانت الأمة العربية من أرقى الأجناس البشرية، فإن لغتها أرقى اللغات الحية على الإطلاق، وأثراها، وأخفها على اللسان، وأعذبها على السمع، وأشملها لمقوّمات الاداب والعلوم من الألفاظ والتراكيب [١].

والأمة العربية من أقدم الأمم وأشهرها، كان لها في التاريخ القديم والحديث آثار لا تزال باقية إلى الآن، وقد خلّد الله سبحانه وجودها بأن اختار منها خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمدا صلّى الله عليه وسلّم، فكان شاهد صدق على أنها الأمة الجديرة بقيادة العالم إذا عضّت بالنواجذ على هذا الدين الذي هو خاتم الأديان وأوفاها بحاجة البشرية، كما خلّد لغتها حينما جعل آية خاتم أنبيائه العظمى وحيا يتلى، وقرانا عربيا مبينا، باقيا ما بقي مسلم على هذه الأرض، وما من أمة إسلامية إلا وتاريخها ممتزج بتاريخ هذه الأمة العربية، ولهذه الأمة التي حملت لواء الإسلام إلى الدنيا كلها فضل عليها [٢].

(١) دائرة معارف القرن العشرين (٦/ ١٢٢).

(٢) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٦)..

أقسام العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها على النحو الآتي:

١- **العرب البائدة:** يعني العرب القدامى، وهم الذين بادوا ومحيت آثارهم من الوجود قبل الإسلام، ولا يمكن معرفة تفاصيل كافية عن تاريخهم، وهم قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وجُرهم وحضرموت وغيرهم ممن يتصل بهم، وقد سادوا في زمانهم، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى مصر، والشام [١].

٢- **العرب العاربة:** أي العرب الخلّص، وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يشجُب بن قحطان وتسمى بالعرب القحطانية ويعرفون بعرب الجنوب لأنهم كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية، ومهدها بلاد اليمن، وقد تشعبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان:

(أ) **حمير:** وأشهر بطونها زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك.

(ب) **كهلان:** وأشهر بطونها همدان، وأنمار، وطيئ ومذحج وكندة ولخم، وجذام والأزد والأوس والخرزج وأولاد جفنة ملوك الشام [٢].

٣- **العرب المستعربة:** وهم أولئك الذين ينحدرون من صلب سيدنا إسماعيل- عليه السلام- ويطلق عليهم أيضا " العرب العدنانية" وإنما أطلق عليهم هذا الاسم، لأن إسماعيل أباهم لم يكن عربي العصب والصلب، وإنما صاهر العرب وعايشهم وآكلهم وشاربهم، وتشارب اللغة من أفواههم، ومع أنهم عرب مستعربة إلا أنهم

---

(١) الرحيق المختوم (ص١٠).

(٢) فقه السيرة- منير الغضبان (ص٤٥).

غدوا أفضل العرب برسول الله صلى الله عليه وسلم [١].

وهؤلاء هم **عرب الشمال**، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل وأبناؤه، والجراهمة الذين تعلّم منهم إسماعيل العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربا مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي صلّى الله عليه وسلّم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب، وبطونها فقد جاء بعد عدنان ابنه معدّ، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه: ربيعة، ومضر، ومنهما كانت معظم القبائل العربية، فمن أشهر قبائل مضر: هوازن، وغطفان، وتميم، وعدي، وقريش، ومن أشهر قبائل ربيعة: عبد القيس، وبكر، وتغلب، وحنيفة[٢].

ووُلد الرسول صلى الله عليه وسلم من مضر، وقد أخرج البخاري عن كُلَيْبُ بْن وَائِلٍ، قَالَ: حَدَّثَتْنِي رَبِيبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: قُلْتُ لَهَا: " أَرَأَيْتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَانَ مِنْ مُضَرَ؟ قَالَتْ: فَمِمَّنْ كَانَ إِلَّا مِنْ مُضَرَ، مِنْ بَنِي النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ" [٣].

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم وعدي ومخزوم وتيم وزهرة وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم.

---

(١) سبل الهدى والرشاد (١/ ٣).

(٢) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى (٤/ ١٧٨).

وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

قال صلى الله عليه وسلم:«إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» (١).

أماكن انتشار القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم (٤/ ١٧٨٢).

طبقات سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام:

كان يسكن شبه جزيرة العرب فريقان:

الأول: البدو: وهم الذي يسكنون البادية، ويرتحلون وراء العشب والكلأ، ويتتبعون مواقع الغيث والمطر، وهم يسكنون الخيام، وهي البيوت من الوبر، والشعر، وهم الأكثرون ولا سيما في الشمال: الحجاز وما والاها من نجد وتهامة.

الثاني: الحضر: وهم الذين يسكنون القرى والمدن، ويسكنون بيوتا من اللبن، أو الحجر، ومعظم هؤلاء كانوا يسكنون في الجنوب: اليمن وما جاورها، وعلى تخوم بلاد فارس والروم [١].

أحوال العرب قبل الإسلام

أولا: أحوال العرب الدينية:

إن معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل- عليه السلام- حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم- عليه السّلام- فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظا مما ذكروا به، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم.

وقد كان بمكة ثلة قليلة يتعلقون ببقايا الحنيفية السمحة وينادون بها عرفوا بالحنفاء، وكانوا يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من أحكام الجاهلية كالقرابين والنحائر وغيرها. وقد عمر بعضهم إلى قبيل بعثته صلى الله عليه وسلم.

ومن أشهر هؤلاء الحنفاء؛ **زيد بن عمرو بن نفيل**، فقد كان يعرف النور الظاهر، والنسب الطاهر، ويعتقد الدين الحنيفي، وينتظر المقدم النبوي، وكان لا يذبح

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٩).

للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم. وكان ينكر على قريشٍ أفعالَهم الشركية، وله شعرٌ تظهر عليه صبغةُ التوحيد والإيمان نختار منه المقتطفاتِ التالية:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ❊ لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا
دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ ❊ عَلَى المَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الجِبَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ❊ لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا
إِذَا هِيَ سِيقَتْ إِلَى بَلْدَةٍ ❊ أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالَا

وقال أيضًا:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ ❊ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُورُ
عَزَلْتُ اللَّاتَ وَالعُزَّى جَمِيعًا ❊ كَذَلِكَ يَفْعَلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
وَلَكِنْ أَعْبُدُ الرَّحْمَنَ رَبِّي ❊ لِيَغْفِرَ ذَنْبِيَ الرَّبُّ الغَفُورُ

ومنهم أيضا: **قُس بن ساعدة الإيادي**، وكان من حكماء العرب قبل الإسلام، وقد تُوفى حوالى عام ٦٠٠م، ويعده " الشهرستانى" فى كتاب «المِلَل والنحل» بين مَن يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب، وكان زاهِداً فى الدنيا، خاصة بعد أنْ مات له أخوان ودفنَهُما بيده، وكان يَحضُرُ سوقَ عُكاظ ويَسيرُ بَين الناس ويُنذِرهُم ... ولقد ضُرِبَ بِه المَثَلُ فى الخطابة والبلاغة ، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان[1].

عن ابن عباس قال:" إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق عكاظ فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه وأشار بيده إلى مكة، قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من

(١) الملل والنحل (٣/ ٨٦).

ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه"[١].

وكان من المبشِّرِينَ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أدرك زمانه إلا أنه مات قبل بعثته صلى الله عليه وسلم. ومن أشعاره:

فِي الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَسْعَى الأَصَاغِرُ وَالأَكَابِرْ
لا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ، ولاَ مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرْ
أَيْقَنْتُ أَنِّي لا مَحَالَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرْ [٢]

ومنهم أيضا: **ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى**: ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها- وكان ممن كره عبادة الأوثان، وما كان عليه قريش من الضلال، فخرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل إلى الشام يبحثان عن دين تركن إليه نفوسهما، فأما زيد فقد انتهى أمره إلى الحنيفية- كما أسلفنا- واتّبع دين إبراهيم، وأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصّر، ولعله لقي من الرهبان من بقي على دين عيسى الحق، ولم يبدل، ولم يحرف، فقد كان موحّدا، وبشر بالنبي صلّى الله عليه وسلّم، وفي صحيح البخاري في حديث بدء الوحي الطويل: «وكان امرا قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي» ولما أخبره النبي صلّى الله عليه وسلّم بخبره قال: «هذا الناموس الذي نزل الله

(١) الخصائص الكبرى (١/ ٤٩).

(٢) تاريخ بغداد (٣/ ٨٩).

على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني فيها حيا إذ يخرجك قومك» ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أو مخرجي هم؟» قال: نعم لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا» ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي" [١].

ومنهم أيضا: **عامر بن الظرب العدواني**، وكان من شعراء العرب وخطبائهم، وله وصية طويلة يقول في آخرها "إني ما رايت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا، ولا جاثيا إلا ذاهبا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء. ثم قال: إني أرى أمورا شتى، وحتى، قيل له وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حيا، ويعود لا شيء شيئا، ولذلك خلقت السموات والأرض، فتولوا عنه ذاهبين، وقال: "ويل إنها نصيحة، لو كان من يقبلها" وكان عامر قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها (٢).

نشأة الوثنية ببلاد العرب:

اختلف العلماء في نشأت الوثنية في بلاد العرب، وفيمن أدخلها إلى تلك البلاد.

فذهب فريق من العلماء إلى أن أول من أدخل الأصنام إلى بلاد العرب **عمرو بن لحي رئيس خزاعة**، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس، ودانوا له ظنا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء، ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقا، لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله، فأجابوه. ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم [٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (١/ ٧).

(٢) الملل والنحل (٣/ ٨٧).

(٣) الرحيق المختوم (ص ٢٧).

وثمة سبب آخر ذكره ابن الكلبي وهو أن أهل مكة كان لا يسافر منهم أحد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم، وحبا له، فحيثما حل وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة؛ تيمنا منهم بها، وتعلقا بالحرم، وحبّا له، وهم بعد يعظمون الكعبة، ومكة، ويحجون ويعتمرون، ثم لم يلبثوا أن عبدوا ما استحبوا من هذه الحجارة، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصارت إلى ما صاروا إليه الأمم قبلهم [١].

أصنام العرب:

انتشرت عبادة الأصنام في بلاد العرب قبل الإسلام انتشارا واسعا، ويكفي أن تعلم أن عدد الأصنام التي كانت موجودة حول الكعبة بلغت ثَلَاثِمِائَة وَسِتُّونَ صَنَمًا؛ فعن ابن عَبَّاسٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي الْكَعْبَةَ وَفِي الْكَعْبَة ثَلَاثِمِائَة وَسِتُّونَ صَنَمًا قَدْ شَدَّ لَهُمْ إِبْلِيسُ أَقْدَامَهَا بِالرَّصَاصِ قَالَ فَجَاءَ وَمَعَهُ قَضِيبُهُ فَجَعَلَ يَهْوِي بِهَا إِلَى كُلِّ صَنَمٍ مِنْهَا فَيَخِرُّ لِوَجْهِهِ وَيَقُولُ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا حَتَّى أَمَرَّ عَلَيْهَا كُلِّهَا" [٢].

وكان من أعظم أصنامهم (هُبَل) الذي كان بجوف الكعبة، وكان على صورة إنسان، وكان مكسور الذراع، فأبدله القرشيون ذراعا من ذهب، ومن أشهرها (ودّ) وكان لكلب بدومة الجندل، أما (اللّات) فكانت بالطائف لثقيف، وكانت صخرة كبيرة تعظمها ثقيف، وقد أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بهدمها بعد خضوعهم، ودخولهم في الإسلام، وأما (العزّى) فكانت بوادي نخلة، وقد قطعها خالد بن الوليد

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٧٧).

(٢) دلائل النبوة (ص ١٩٦).

بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأما (مناة) فكانت بالمشلّل من قديد على ساحل البحر الأحمر، وكانت الأنصار وغسان يعظمونها قبل الإسلام، وكانوا يحجون إليها، وكان من أَهلَّ لها لم يطف بين الصفا والمروة، ويتحرج من ذلك، فلما أسلموا بقوا على تحرجهم فأنزل الله قوله:" إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِّ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما" البقرة (١٥٨).

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام الصغيرة والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

ولم تتوقف عبادة العرب عند الأصنام فحسب؛ بل منهم من يدين باليهودية، أو النصرانية، ومن يعبد الجن، أو الملائكة، أو النار، أو الأجرام السماوية، أو غير ذلك مما لا يضر ولا ينفع.

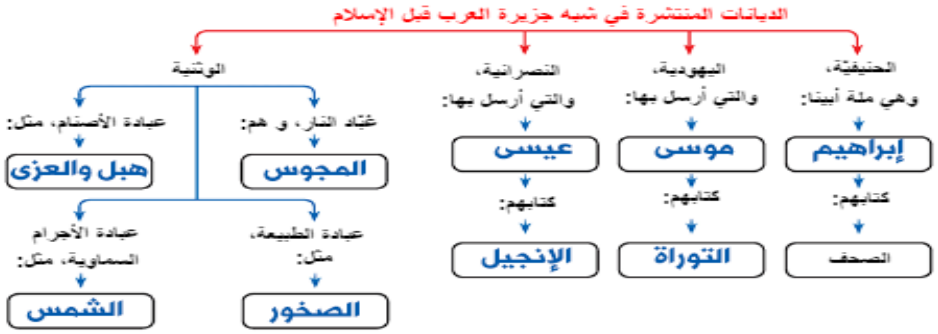

ثانيًا: أحوال العرب الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

١- الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما.

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

٢- الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر.

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نجم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣- العلم والقراءة والكتابة.

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والأمية، والتقليد والجمود على القديم -وإن كان باطلا- وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب وهذه هي الصفة التي كانت غالبة عليها، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ ومع أميتهم وعدم اتساع معارفهم فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد؛ ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء،

حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهر في علم قص الأثر، وهو القيافة، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طبهم مبنيا على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة [١].

٤- الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بين القبائل لأتفه الأسباب، من أجل ناقة، أو سباق فرس، أو نحو ذلك، وذلك كحرب البسوس التي قامت بين بكر، وتغلب أربعين عاما من أجل ناقة حتى أكلت الكثير من أبطالهم ورؤسائهم، وكان من ضحاياها كليب بن ربيعة. وكحرب داحس والغبراء، التي قامت ودامت طويلا بسبب سباق فرسين [٢].

وكان يغلب على بعض قبائل البدو السطو والإغارة بقصد نهب الأموال، وسبي الأحرار وبيعهم، كزيد بن حارثة فقد كان عربيا حرا، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيا حرا، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة فضلا عن الرجل- من صنعاء إلى حضرموت، لا تخاف إلا الله والذئب على غنمها.

المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع؛ فقد كانت تورث، وكانوا إذا مات الرجل وله زوجةٌ وأوْلاد مِن غيرها، كان الولد الأكبر أحقَّ بزوجة أبيه من غيرِه، فهو يعتبرها إرثًا، كبقيَّة أموالِ أبيه، فإنْ أراد أن يعلن عن رغبتِه في الزواج منها طرَح عليها ثوبًا، وإلاَّ كان لها أن تتزوَّج بمَن تشاء، حتى أبطل الإسلام ذلك وكان الابن يتزوج امرأة أبيه، فحرم الإسلام ذلك، وسماه (نكاح المقت) وما كانوا يورثونها وكانوا

---

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٨٦).

(٢) السيرة على ضوء القرآن والسنة (١/ ٩٣).

يقولون في ذلك: "لا يَرثُنا إلا من يحمل السيفَ ويَحْمي البيضة"، فإذا مات الرجلُ ورِثَه ابنُه، فإن لم يكن، فأقرب مَن وُجِد مِن أوليائه أبًا كان أو أخًا أو عمًّا، على حين يضمُّ بناتِه ونساءه إلى بناتِ الوارث ونِسائِه، فيكون لهنَّ ما لهنَّ، وعليهنَّ ما عليهنَّ، كما كانوا يجمعون بين الأختين حتى حرم ذلك الإسلام[١].

وعلى الرغم من ذلك؛ فإن بعض القبائل كانت تجلّ المرأة، وتأخذ رأيها في الزواج، وكتب الأدب والتاريخ فيها الكثير من القصص في ذلك.

والعرب جميعا يغارون على أعراضهم، ويحافظون على نسائهم أكثر من أنفسهم، والعربي قد يقتل، وقد يسطو على الأموال، ولكن تأبى عليه مروءته أن ينتهز ضعف امرأة، أو واحدتها في سفر مثلا، فينتهك عرضها.

والمرأة العربية الحرة كانت تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت أيضا تتسم بالشجاعة تتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك معهم في القتال إذا دعت الضرورة[٢].

نكاح الجاهلية:

وقد سادت في بعض الأوساط أنواع من الأنكحة الفاسدة؛ لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، فقد أورد البخاري وأبو داود رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذكرت فيها أنواع الأنكحة الفاسدة في الجاهلية؛ فعن عروة بن الزبير أنَّ عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أخبرته:" أَنَّ النِّكَاحَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا **نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ**، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيدَتَهُ –

---

(١) الأغاني (١٠/ ٢٧٩).

(٢) السنة النبوية على ضوء القران والسنة (١/ ٨٧).

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ: وَلِيَّتَهُ- فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، **وَنِكَاحٌ آخَرُ** كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ اسْتَبْضِعِي مِنْهُ. وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تُسْتَبْضَعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِنْ أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَصْنَعُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ. **وَنِكَاحٌ آخَرُ** يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ فَوَضَعَتْ وَمَرَّ لَيَالِي بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا فَتَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ، وَهَذَا ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، فَتُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ مِنْهُمْ بِاسْمِهِ فَيُلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا. **وَنِكَاحٌ رَابِعٌ** يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَيى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا - وَهُنَّ الْبَغَايَا- هُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُنَّ عَلَمًا لِمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ فَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَهُ وَدُعِيَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلاَّ نِكَاحَ أَهْلِ الإِسْلاَمِ الْيَوْمَ"[1].

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة- رضي الله عنها- **كنكاح الخدن** وهو في قوله تعالى: وَلا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ كانوا يقولون:" ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، **وكنكاح المتعة** وهو النكاح المعين بوقت، **ونكاح البدل**: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزل لي عن امرأتك،

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي رقم(٥١٢٧)، سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب في وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية (٢/ ٢٨٢).

وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك [١]. ومن الأنكحة الباطلة **نكاح الشّغار** وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الاخر ابنته، ليس بينهما صداق [٢].

وكانوا يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا ما طُلِّقْن أو ماتوا عنهن، وكانوا يرثون نساء الميت ويعضلونهن عن الزواج؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ} [النساء من الآية:١٩] قال: "كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أَحَقَّ بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوَّجها، وإن شاءوا زوَّجوها، وإن شاءوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. وفي رواية أخرى لأبي داود، قال: "{لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} [النساء من الآية:١٩] وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَرِثُ امْرَأَةَ ذِي قَرَابَتِهِ، فَيَعْضُلُهَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَرُدَّ إِلَيْهِ صَدَاقَهَا، فَأَحْكَمَ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْ ذَلِكَ [٣].

الجمع بين الزوجات في المجتمع الجاهلي:

وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون قيد أو شرط، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن،

---

(١) سنن الدارقطني، كتاب النكاح (٤/ ٣٠٩).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح باب الشغار (٧/ ١٢ح ٥١١٢) .

(٣) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب قوله تعالى: {لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} (٣/ ٤٣١).

والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقا ما كن يحلمن بها.

روى الإمام الحاكم – رضي الله عنه – بإسناده أن غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:"اختر منهن أربعا" [١].

وروى أبو داود – رضي الله عنه – بإسناده أن عميرة الأسدى قال : أسلمت وعندي ثماني نسوة ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال :" اختر منهن أربعا" [٢].

الطلاق قبل الإسلام:

وكذلك كانوا يسرفون في الطلاق من غير أن يكون هناك داع مشروع، أو مقبول. ولم يكن للطلاق حدّ محدود، فكان الرجل يطلق ثم يراجع، وهكذا فلما جاء الإسلام قيّد ذلك، وأعطى للزوج فرصة لتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلّق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحلّ له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم:

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ"

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظّهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريما مؤبدا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل للزوج مخرجا منه، وذلك بالكفّارة قال تعالى:

---

(١) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٢٠٩).

(٢) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب في من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان (٣/ ٤٣١).

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَّ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهَّ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهَّ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ" المجادلة (٢-٤).

وأد البنات وقتل الأولاد:

ومن المآسي التي كانت تزاولها بعض القبائل؛ وأد البنات **خشية العار**، وقتل الأولاد من الفقر أو خشية الفقر وكانوا يئدون البنات خشية لحوق العار بهن عند كبرهن إذا سلكن طريق الانحراف والعُهر؛ قال تعالى:" وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ" [التكوير:٨-٩]. وقال تعالى:" وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ" [النحل:٥٨-٥٩]. وقال أيضًا:" وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ" [الإسراء من الآية:٣١]. وعن الْوَضِينِ أَنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال:"يا رسول اللهَّ إِنَّا كنَّا أهل جاهليَّةٍ وعبادة أوثانٍ، فكنَّا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنةٌ لي فلمَّا أَجَابَتْ وكانت مسرورةً بدعائي إذا دعوتها، فدعوتُها يومًا فَاتَّبَعَتْنِي، فمررتُ حتى أتيتُ بئرًا من أهلي غير بعيدٍ، فأخذتُ بيدها فَرَدَّيْتُ بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه يا أبتاه". فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى وَكَفَ دمعُ عينيه، فقال له رجلٌ من جلساء رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أَحْزَنْتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم"، فقال له:" كُفَّ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا

أَهَمَّهُ". ثم قال له:" أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ". فأعاده فبكى حتَّى وكف الدَّمع من عينيه على لحيته، ثمَّ قال له:" إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا، فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ"[١].

وكان في العرب قبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل، فلما جاء الإسلام قضى على ذلك، وكرّم البنات والبنين، وأوصى بهنّ وبهم خيرا، وكان في المثل العالية التي كان يضربها النبي في معاملة بناته، وبناتهن، وأولادهن، وبنات المسلمين أكبر معلم ومهذب في هذا[٢].

بعض فضائل العرب قبل الإسلام:

وعلى الرغم من تلك الصورة القاتمة التي رأيناها؛ إلا أنهم كانوا يتحلون بكثير من الفضائل والأخلاق الكريمة، وأن فضائلهم كانت أكثر من مثالبهم، ولعل هذا يفسر لنا سبب اختيار الله خاتم رسله وأنبيائه منهم، واصطفائهم لحمل الرسالة المحمدية الخالدة وتبليغها للعالم كافة.

ومن أهم الفضائل والأخلاق التي تحلوا بها:

١- **الصدق**: تميَّز العرب قبلَ الإسلام بالصدق، ونفورهم من الكذب، وقد كانت هذه إحدى أهمّ الصفات التي تميَّز بها الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وصاحبه أبي بكر الصديق.

٢- **الكرم**: وهيَ إحدى الصفات المُتأصِّلة في العرب قَبل الإسلام، فقد كانوا يُكرمونَ الضيف بحُسن الاستقبال، والطعام، وقد كانوا يُوقِدونَ النار في الليل؛ حتى

---

(١) سنن الدارمي، باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم (١/ ١٥٣)، رجاله ثقات غير أنه مرسل وقد تفرد بروايته الدارمي.

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص٣١).

يستدلَّ المسافرونَ على بيوتهم، علماً بأنّهم كانَوا يطلقون عليها اسم "نار الضيافة"، ومن أشهر الشخصيّات العربيّة التي ارتبطَ اسمها بالكرم حاتم الطائيّ.

٣- **العِزّة والإباء**: فقد كان العرب قبل الإسلام يرفضونَ العيش بذلّ، ويعتزّون بحرّيتهم، ويرفضون الظُّلمَ.

٤- **حُسن الجِوار**: كان العرب يُؤدّونَ حق الجار كجزء من خصالهم النبيلة التي كانوا يحرصونَ عليها، فكانوا يُقدِّمون الحماية، والإغاثة لجيرانهم، ويَعدّونه جزءاً من شَرَفهم.

٥- **الصَّبر**: تُعَدّ الظروف المعيشيّة للعرب في شبه الجزيرة العربيّة ظروفاً قاسيةً، وهذا ما وَلَّد فيهم قوّةً وصَبْراً على تحمُّلِ مختلفِ المصاعبِ التي قد يواجهونها، كالجوع، والسفرِ الطويل، وغيرها.

٦- **الشجاعة والإقدام**: كانت الشجاعة صِفة غريزيّة في كلّ عربيّ، إذ كانَ العربيّ يمتلك قوّةً تدفعُه إلى القتالِ دون خوف، ونصرة المظلومِ دونَ تردُّد، وقد ساعدَت ظروف حياتهم البدويّة على التأهُّب لأيّ خطرٍ قد يصيبهم، فلمّا جاءَ الإسلام، قوَّم هذه الصِّفة؛ فأمرَ بكَفّ الأيدي عن الاعتداء على الآخرينَ دونَ وجودِ سببٍ للقتال.

٧- **الوفاء بالعهد**: وهو عكس الغَدْر، والكذب، حيث كانَ العرب يُحافظونَ على عهودهم، ويُثنونَ على الوفيّ، ويُشهِرونه، ويرفضون الغدر، وخيانة الوعود.

ثالثا: أحوال العرب السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم

تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي[١].

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها **(المرباع)** وهو ربع الغنيمة، **(والصفايا)** وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة **(والنشيطة)** وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء **(والفضول)** وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات[٢].

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محقًا أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم:"انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا".

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضًا كانت تشن الحرب

---

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٦٠).

(٢) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ص٣١.

عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، حلف الفضول (حلف المطيبين)[١].

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق ومن أشهرها حرب الفجار[٢] وكان - عدا هذه الحروب الكبرى- تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس[٣].

(١) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول، د. محمد قلعجي ص٣١.

(٢) المصدر السابق (ص٣٣ – ٣٥).

(٣) دراسة تحليلية لشخصية الرسول (ص٣٥).

رابعا: أحوال العرب الاقتصادية:

يغلب على الجزيرة العربية الصحاري الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة إلا في أطرافها وخاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة كان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم، وكانت القبائل تنتقل بحثًا عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة التي غرقت بجدة ثم أصبح مقيما في مكة[1].

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقيا وشرق آسيا جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزا متقدما في التجارة الدولية آنذاك.

وكان الذين يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيما أهل مكة فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ) [العنكبوت: ٦٧]

وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال تعالى: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، منير الغضبان ص٦٠.

رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش: ١-٤].

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستوردًا من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

خريطة الطرق التجارية بين مكة واليمن والشام

واشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند وإندونيسيا، وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي كما يسمى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

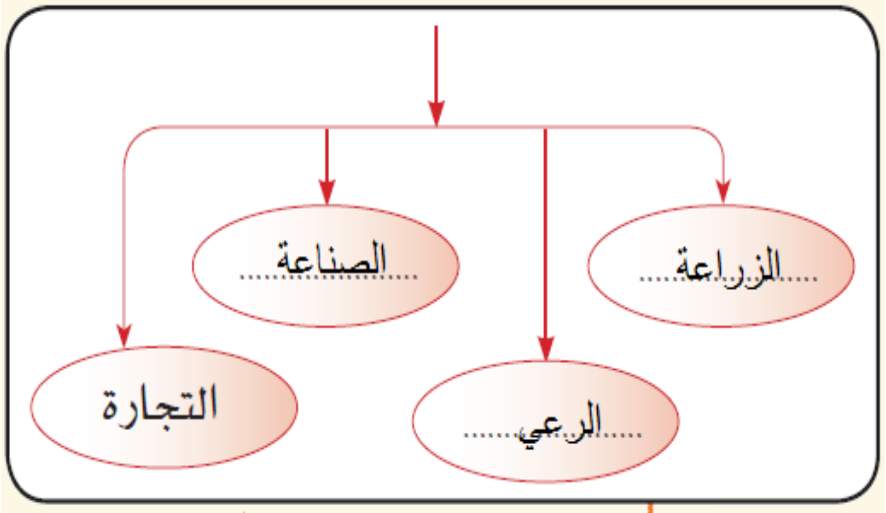

الشكل (١٧)

وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[١] وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان إلى أكثر من مائة في المائة[٢].

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمانيَ ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٨ إلى ١٠١).

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم محمد ص١٩.

عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ) [البقرة: ١٩٨].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقًا للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية[1].

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ١٠٢).

الفصل الثاني: بين يدي مولده صلى الله عليه وسلم

وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم، ونشأته العزيزة، ورعاية الله – عزَّ وجلَّ – له قبل نزول الوحي عليه، وسيرته العطرة قبل البعثة، نريد أن نتحدَّث عن الآيات العظيمة، والأحداث الجليلة؛ الَّتي سبقت ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فقد سبق مولده الكريم أمورٌ عظيمةٌ دلَّت على اقتراب تباشير الصَّباح.

إنَّ من سنن الله في الكون: أنَّ الانفراج يكون بعد الشِّدَّة، والضِّياء يكون بعد الظَّلام، واليُسر بعد العُسر.

ومن أهمِّ هذه الأحداث:

١ – حفر زمزم:

وكان أول من ابتدئ بحفرها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد روى ابن إسحاق عن عَبْدِ اللهَّ ابْن زُرَيْرٍ الْغَافِقِيِّ: أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُّ تَعَالَى عَنْهُ يُحَدِّثُ حَدِيثَ زَمْزَمَ حِينَ أُمِرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِحَفْرِهَا، قَالَ: قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي لَنَائِمٌ فِي الْحِجْرِ إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَالَ: احْفِرْ طَيْبَةَ [١].

قَالَ: قُلْتُ: وَمَا طَيْبَةُ؟ قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَى مَضْجَعِي فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفِرْ بَرَّةَ [٢] قَالَ: وَمَا بَرَّةُ؟ قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَى مَضْجَعِي فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفِرْ الْمُضْنُونَةَ[٣] قَالَ: فَقُلْتُ: وَمَا الْمُضْنُونَةُ؟ قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَى مَضْجَعِي فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي

---

(١) قيل لزمزم طيبة، لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم.

(٢) لأنها فاضت على الأبرار وغاضت عن الفجار.

(٣) لأنها ضن بها على غير المؤمنين فلا يتضلع منها منافق.

فَقَالَ: احْفِرْ زَمْزَمَ. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا زَمْزَمُ؟ قَالَ: لَا تَنْزِفُ [١] أَبَدًا وَلَا تُذَمُّ [٢]، تَسْقِي الْحَجِيجَ الْأَعْظَمَ، وَهِيَ بَيْنَ الْفَرْثِ وَالدَّمِ، عِنْدَ نُقْرَةِ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ [٣]، عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا بُيِّنَ لَهُ شَأْنُهَا، وَدُلَّ عَلَى مَوْضِعِهَا، وَعَرَفَ أَنَّهُ صُدِّقَ، غَدَا بِمِعْوَلِهِ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍ وَلَدٌ غَيْرُهُ، فَحَفَرَ فِيهَا. فَلَمَّا بَدَا لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ الطَّيَّ [٤] كَبَّرَ، فَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، إِنَّهَا بِئْرُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ، وَإِنَّ لَنَا فِيهَا حَقًّا فَأَشْرِكْنَا مَعَكَ فِيهَا، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ خُصِصْتُ بِهِ دُونَكُمْ، وَأُعْطِيتُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: فَأَنْصِفْنَا فَإِنَّا غَيْرُ تَارِكِيكَ حَتَّى نُخَاصِمَكَ فِيهَا، قَالَ: فَاجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أُحَاكِمُكُمْ إِلَيْهِ، قَالُوا: كَاهِنَةُ بَنِي سَعْدٍ هُذَيْمٌ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَكَانَتْ بِأَشْرَافِ الشَّامِ. فَرَكِبَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ بَنِي أَبِيهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَرَكِبَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ نَفَرٌ. قَالَ: وَالْأَرْضُ إِذْ ذَاكَ مَفَاوِزُ. قَالَ: فَخَرَجُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ تِلْكَ الْمَفَاوِزِ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ، فَنِيَ مَاءُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَصْحَابِهِ، فَظَمِئُوا حَتَّى أَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ، فَاسْتَسْقَوْا مَنْ مَعَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: إِنَّا بِمَفَازَةٍ، وَنَحْنُ نَخْشَى عَلَى أَنْفُسِنَا مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ. فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مَا صَنَعَ الْقَوْمُ وَمَا يَتَخَوَّفُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ: مَاذَا تَرَوْنَ؟ قَالُوا: مَا رَأْيُنَا إِلَّا تَبَعٌ لِرَأْيِكَ، فَمُرْنَا بِمَا شِئْتَ، قَالَ: فَإِنِّي أَرَى أَنْ يَحْفِرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حُفْرَتَهُ لِنَفْسِهِ بِمَا بِكُمْ الْآنَ مِنْ الْقُوَّةِ، فَكُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ دَفَعَهُ أَصْحَابُهُ

(١) لا يفرغ ماؤها ولا يلحق قعرها.

(٢) أي لا توجد قليلة الماء، تقول: أذمت البئر: إذا وجدتها قليلة الماء.

(٣) الذي في جناحيه بياض، وقيل غير ذلك.

(٤) الحجارة التي طوى بها البئر.

فِي حُفْرَتِهِ ثُمَّ وَارَوْهُ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا، فَضَيْعَةُ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَيْسَرُ مِنْ ضَيْعَةِ رَكْبٍ جَمِيعًا، قَالُوا: نِعْمَ مَا أَمَرْتَ بِهِ.. فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَحَفَرَ حُفْرَتَهُ، ثُمَّ قَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ الْمَوْتَ عَطَشًا، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: وَاللَّهِ إِنَّ إِلْقَاءَنَا بِأَيْدِينَا هَكَذَا لِلْمَوْتِ، لَا نَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ وَلَا نَبْتَغِي لِأَنْفُسِنَا، لَعَجْزٌ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنَا مَاءً بِبَعْضِ الْبِلَادِ، ارْتَحِلُوا، فَارْتَحَلُوا. حَتَّى إِذَا فَرَغُوا، وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ فَاعِلُونَ، تَقَدَّمَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا. فَلَمَّا انْبَعَثَتْ بِهِ، انْفَجَرَتْ مِنْ تَحْتِ خُفِّهَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، فَكَبَّرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَكَبَّرَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ نَزَلَ فَشَرِبَ وَشَرِبَ أَصْحَابُهُ وَاسْتَقَوْا حَتَّى مَلِئُوا أَسْقِيَتَهُمْ، ثُمَّ دَعَا الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: هَلُمَّ إِلَى الْمَاءِ، فَقَدْ سَقَانَا اللَّهُ، فَاشْرَبُوا وَاسْتَقَوْا، فَجَاءُوا فَشَرِبُوا وَاسْتَقَوْا. ثُمَّ قَالُوا: قَدْ وَاللَّهِ قُضِيَ لَكَ عَلَيْنَا يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، وَاللَّهِ لَا نُخَاصِمُكَ فِي زَمْزَمَ أَبَدًا، إِنَّ الَّذِي سَقَاكَ هَذَا الْمَاءَ بِهَذِهِ الْفَلَاةِ لَهُوَ الَّذِي سَقَاكَ زَمْزَمَ، فَارْجِعْ إِلَى سِقَايَتِكَ رَاشِدًا. فَرَجَعَ وَرَجَعُوا مَعَهُ، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى الْكَاهِنَةِ، وَخَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي زَمْزَمَ[1].

ما يستفاد من قصة حفر زمزم:

أنّ الله تعالى قد اصطفى بني هاشم بهذا الفضل المبين، الذي فيه إحياء لأمر من شعائر النّبيّين، وما كان ذلك إلاّ مقدّمة لاصطفاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ هذه الحادثة وتخصيص بيت عبد المطّلب بهذا الشّرف أصبح على لسان كلّ عربيّ، فإذا بُعِث

) سيرة ابن هشام، (١/ ١٤٢)، دلائل النبوة (١/ ٩٣)، بإسناد صحيح. ينظر: صحيح السيرة للعلي (ص (٣٥١).

النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فإنّه ينبغي أن يجهر الجميع قائلين :الشّيء من معدنه لا يُستغرب.

٢- نذر عبد المطلب ذبح أحد أبنائه:

قد رأينا فيما سبق كيف تعنتت قريش مع عبد المطلب، وحاولت مشاركته في أمر زمزم، وكان الدافع لهم على ذلك قلة ولد عبد المطلب؛ فلم يكن ولد له آنذاك إلا ولد واحد، حتى قالت له أحدهم:" يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذ، لا ولد لك!!" فقال عبد المطلب أبالقلّة تعيّرني؟! فو الله لئن آتاني الله عشرة من الولد ذكوراً لأنحرنّ أحدهم عند الكعبة [١].

وتوافى بنوه عشرة فلما آنس فيهم المقدرة على أن يمنعوه؛ دعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا. وفي سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قدح، وأخذها عبد المطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هبل في جوف الكعبة. وكانت العرب كلما اشتدّت بها الحيرة في أمر لجأت إلى صاحب القداح كي يستفتي لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح. وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبنائه وأحبّهم لذلك إليه. فلمّا ضرب صاحب القداح القداح التي عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها من ينحره أبوه، خرج القدح على عبد الله، فأخذ عبد المطّلب الفتى بيده وذهب به لينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين إساف ونائلة. إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به أن لا يفعل، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عذرا. وتردّد عبد المطلب لدى إلحاحهم. وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة؟ قال المغيرة بن عبد الله المخزومي: إن كان فداؤه بأموالنا فديناه. وتشاور القوم واستقرّ رأيهم على

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٥١).

الذهاب إلى عرّافة بيثرب لها في مثل هذه الأمور رأي. وجاؤا العرّافة، فاستمهلتهم إلى الغد ثم قالت لهم كم الديّة فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم تقرّبوا وقرّبوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم: فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم. وقبلوا، وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون في الإبل حتى بلغت مائة؛ عند ذلك خرجت القداح على الإبل [1].

٣- محاولة الأحباش هدم الكعبة:

وكان سبب قصة أصحاب الفيل - على ما ذكر محمد بن إسحاق - أن أبرهة بن الصباح كان عاملا للنجاشي ملك الحبشة على اليمن، فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة - شرفها الله - فبنى كنيسة بصنعاء. وكتب إلى النجاشي " إني بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها، ولست منتهيا حتى أصرف إليها حج العرب " فسمع به رجل من بني كنانة، فدخلها ليلا. فلطخ قبلتها بالعذرة. فقال أبرهة: من الذي اجترأ على هذا؟ قيل: رجل من أهل ذلك البيت، سمع بالذي قلت. فحلف أبرهة ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها. وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، فسأله أن يبعث إليه بفيله. وكان له فيل يقال له: محمود، لم يُرَ مثله عظما وجسما وقوة، فبعث به إليه. فخرج أبرهة سائرا إلى مكة. فسمعت العرب بذلك فأعظموه، ورأوا جهاده حقا عليهم.

فخرج ملك من ملوك اليمن، يقال له: ذو نفر. فقاتله. فهزمه أبرهة وأخذه أسيرا، فقال: أيها الملك استبقني خيرا لك، فاستبقاه وأوثقه.

---

[1] سيرة ابن إسحاق (ص٣٢)، سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٤٤)، حياة محمد صلى الله عليه وسلم (ص٧٣).

وكان أبرهة رجلا حليما. فسار حتى إذا دنا من بلاد خثعم خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي، ومن اجتمع إليه من قبائل العرب. فقاتلوهم فهزمهم أبرهة. فأخذ نفيلا، فقال له: أيها الملك إنني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة. فاستبقني خيرا لك. فاستبقاه. وخرج معه يدله على الطريق.

فلما مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف. فقال له: أيها الملك، نحن عبيدك. ونحن نبعث معك من يدلك. فبعثوا معه بأبي رِغال مولى لهم. فخرج حتى إذا كان بالمُغَمّس مات أبو رغال، وهو الذي يرجم قبره. وبعث أبرهة رجلا من الحبشة – يقال له: الأسود بن مفصود – على مقدمة خيله وأمر بالغارة على نَعَم الناس. فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير.

ثم بعث رجلا من حمير إلى أهل مكة، فقال: أبلغ شريفها أنني لم آت لقتال، بل جئت لأهدم البيت. فانطلق، فقال لعبد المطلب ذلك.

فقال عبد المطلب: ما لنا به يدان. سنخلي بينه وبين ما جاء له. فإن هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه. وإن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به من قوة.

قال: فانطلق معي إلى الملك – وكان ذو نَفَر صديقا لعبد المطلب، فأتاه، فقال: يا ذا نفر، هل عندك غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشيا، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل، فإنه لي صديق، فأسأله أن يعظم خطرك عند الملك.

فأرسل إليه، فقال لأبرهة: إن هذا سيد قريش يستأذن عليك. وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف لأمرك، وأنا أحب أن تأذن له.

وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما. فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه. وكره أن يجلس معه على سريره. وأن يجلس تحته. فهبط إلى البساط فدعاه فأجلسه معه. فطلب منه أن يرد عليه مائتي البعير التي أصابها من ماله.

فقال أبرهة لترجمانه، قل له: إنك كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك. قال: لِمَ؟ قال: جئت إلى بيت - هو دينك ودين آبائك، وشرفكم وعصمتكم - لأهدمه. فلم تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير؟ قال: أنا رب الإبل. والبيت له رب يمنعه منك.

فقال: ما كان ليمنعه مني. قال: فأنت وذاك. فأمر بإبله فردت عليه.

ثم خرج وأخبر قريشا الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، ويتحرزوا في رءوس الجبال، خوفا عليهم من مَعَرَّة الجيش. ففعلوا. وأتى عبدُ المطلب البيتَ. فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول: لا هُمَّ إن المرء يمنع رحله ... وحلاله فامنع حلالك

ثم توجه في بعض تلك الوجوه مع قومه. وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول. وعبأ جيشه. وهيأ فيه. فأقبل نفيل إلى الفيل. فأخذ بأذنه. فقال: ابرك محمود. فإنك في بلد الله الحرام. فبرك الفيل، فبعثوه فأبى. فوجهوه إلى اليمن، فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل ذلك. فصرفوه إلى الحرم فبرك. وخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل، فأرسل الله طيرا من قبل البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار. حجرين في رجليه وحجرًا في منقاره. فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم. فلم تصب تلك الحجارة أحدا إلا هلك. وليس كلَّ القوم أصابت. فخرج البقية هاربين يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فماج بعضهم في بعض. يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل. وبعث الله على أبرهة داء في جسده. فجعلت تساقط

أنامله حتى انتهى إلى صنعاء وهو مثل الفرخ. وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك [١].

وقد أشار القرآن الكريم والسنة النبوية إلى هذه الحادثة؛ ففي القرآن قال تعالى:" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ " [الفيل: ١-٥].

أما إشارات السنة إلى الحادث فمنها:

أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما خرج زمن الحديبية سار حتى إذا كان بالثنيَّة التي يهبط عليهم منها بركت بها راحلته فقال الناس! حَل حَل فألحت فقالوا: خلأت القصواء! فقال النبي صلى الله عليه وسلم:" ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل" [٢].

دروس وعبر وفوائد من حادثة الفيل:

١- **بيان شرف الكعبة أول بيت وضع للناس**: وكيف أن مشركي العرب كانت تعظمه وتقدسه، ولا يقدمون عليه شيئا، وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

٢- **حسد النصارى وحقدهم على مكة وعلى العرب**: الذين يعظمون هذا البيت، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القليس، وعلى الرغم من استعماله أساليب الترغيب والترهيب، إلا أن العرب امتنعوا ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القليس أحد الأعراب.

---

(١) سيرة ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد (١/ ٣٧)، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء (١/ ٣٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد باب الشروط في الجهاد والمصالحة (٣/ ١٩٣ح ٢٧٣١).

٣- التضحية في سبيل المقدسات: قام ملك من ملوك حمير في وجه جيش أبرهة ووقع الملك أسيرًا، وقام النفيل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع معه من قبائل اليمن فقاتلوا أبرهة إلا أنهم انهزموا أمام الجيش العرمرم وبذلوا دماءهم دفاعا عن مقدساتهم.

٤- خونة الأمة مخذولون: فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة وصاروا عيونا له وجواسيس وأرشدوه إلى بيت الله العتيق ليهدمه، لُعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهم الناس، ولعنهم الله سبحانه وتعالى، وأصبح قبر أبي رغال رمزًا للخيانة والعمالة، وصار ذاك الرجل مبغوضا في قلوب الناس، وكلما مر أحد على قبره رجمه.

٥- حقيقة المعركة بين الله وأعدائه: في قول عبد المطلب زعيم مكة: «سنخلي بينه وبين البيت فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة» وهذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوة العدو وحشوده، فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحدة أمام قدرة الله وبطشه ونقمته، فهو سبحانه واهب الحياة وسالبها في أي وقت شاء.

٦- تعظيم الناس للبيت وأهله: إزداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام الذي تكفل بحفظه وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين وأعظمت العرب قريشا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وكان ذلك آية من الله، ومقدمة لبعثة نبي يبعث من مكة ويطهر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رفعة وشأن.

٧- قصة الفيل من دلائل النبوة: قال بعض العلماء: إن حادثة الفيل من شواهد النبوة ودلالاتها؛ قال ابن كثير رحمه الله:" كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان

حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء".

٨- **حفظ الله للبيت العتيق**: وهي أن الله لم يقدر لأهل الكتاب -أبرهة وجنوده – أن يدمروا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة، حتى والشرك يدنسه، والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقًا من سلطان المتسلطين، مصونًا من كيد الكائدين وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان، وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يُقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام.

٩- **جعل الحادثة تاريخًا للعرب**: استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل، فأرخوا به، وقالوا وقع هذا عام الفيل وولد فلان عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م.

الفصل الثالث: من المولد الشريف إلى البعثة

المبحث الأول: النسب الشريف:

كان النبي صلى الله عليه وسلم من خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق، وقد ذكره الإمام البخاري نسبه الشريف المنيف فقال:" مُحَمَّدُ - صلى اللهَّ عليه وسلم - بنُ عَبْدِ اللهَّ، بنِ عَبْدِ المطلبِ، بنِ هَاشِمِ، بنِ عَبْدِ مَنَافِ، بنِ قُصَيٍّ، بنِ كِلابِ، بنِ مُرَّةَ، بنِ كَعْبِ، بنِ لُؤَيٍّ، بنِ غَالِبِ، بنِ فِهْرِ، بنِ مَالِكِ، بنِ النَّضْرِ، بنِ كِنَانَةَ، بنِ خُزَيْمَةَ، بنِ مدْرِكَةَ، بنِ إلْيَاسَ، بنِ مُضَرَ، بنِ نِزَارِ، بنِ مَعْدِ، بنِ عَدْنَانَ"(١).

وهذا الذي ذكره الإمام البخاري من النسب الزكي هو المتفق عليه بين علماء الأنساب إلى عدنان، قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية:" أجمع العلماء على أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنما انتسب إلى عدنان ولم يجاوزه"(٢).

وأما من بعد عدنان فهم مختلف فيهم، وإن كان النسَّابون اتفقوا على أن عدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم- عليهما السلام- فهو جد النبي الأعلى(٣).

طهارة نسبه الشريف:

ولم يزل صلّى الله عليه وسلّم يتنقل من أصلاب الآباء الطيبين، إلى أرحام الأمهات الطاهرات، لم يمسّ نسبه من سفاح الجاهلية شيء، بل كان بنكاح صحيح على حسب ما تواضع عليه العرب الشرفاء، حتى خرج من بين أبويه الكريمين.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب : مبعث النبي صلى الله عليه وسلم (٥/ ٤٤).

(٢) شرح المولد النبوي المسمى الكوكب الأنور على عقد الجوهر في مولد النبي الأزهر(ص ٩٣)، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (١١٢).

(٣) السيرة النبوية على ضوء القرآن (١/ ١٨٤).

ومما يدل على طهارة نسبه الشريف ما جاء في صحيح مسلم أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:"إِنَّ اللهَّ اصْطفَى كنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، واصْطفَى قُرَيْشًا مِنْ كنَانَةَ، واصْطفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصْطفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" [١]. والمراد بالاصطفاء تخيّر الفروع الزكية من الأصول الكريمة تخيّرا مبناه الأخلاق الكريمة، والفضائل الإنسانية السامية، والطباع الفطرية السليمة، وينضم إلى ذلك بالنسبة إلى إسماعيل والنبي اصطفاء النبوة والرسالة [٢].

وما روي عن أَبِي ودَاعَةَ -رضي اللهَّ عنه- قَالَ:" جاءَ العَبَّاسُ - رضي اللهَّ عنه- إِلَى رسُولِ اللهَّ - صلى اللهَّ عليه وسلم -، وكَأَنَّهُ سمعَ شَيْئًا، فَقَامَ النَّبِيُّ -صلى اللهَّ عليه وسلم- عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: "مَنْ أَنَا؟ قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللهَّ عَلَيْكَ السَّلَامُ، فَقَالَ - صلى اللهَّ عليه وسلم-:" أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهَّ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إِنَّ اللهَّ خَلَق الخَلْقَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقتَيْنِ ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا، وخَيْرُكُمْ نَفْسًا"[٣].

وفي نسبه الشريف دلالة على أن الله تعالى ميز العرب على سائر الناس، وفضل قريشا على سائر القبائل الأخرى، وفضل هاشما على سائر قريش، وفضله صلى الله عليه وسلم على سائر خلقه.

---

(١) كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي -صلى اللهَّ عليه وسلم (٤/ ١٧٨٢) (٢٢٧٦) رقم الحديث.٨٧).

(٢) السيرة النبوية على ضوء القران (١/ ١٨٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم الحديث (١٧٨٨).

المبحث الثاني: زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولَمَّا بَلَغَ خَمْسًا وعِشْرِينَ سَنَةً، وكَانَ شَابًّا نَسِيبًا جَمِيلًا، وَسِيمًا غَضَّ الإِهَابِ، قَوِيَّ البُنْيَانِ أَرَادَ أَبُوهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ أَنْ يُزَوِّجَهُ، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وسنه ثماني عشرة سنة، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبا وموضعا. ولما دخل عليها حملت بالرسول صلّى الله عليه وسلّم[١].

وفاة عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول صلى الله عليه وسلم:

ولم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي بعد الحمل بشهرين؛ فقد خرج إلى الشام في تجارة قريش، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا، فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال عبد الله: أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضا شهرا، ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار، وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة، وهو رجل من بني عدي بن النجار، فرجع الحارث بن عبد المطلب إلى أبيه عبد المطلب، فأخبره أن عبد الله قد توفي، فوجد عليه عبد المطلب، وإخوته وأخواته وجدا شديدا[٢].

---

(١)سيرة ابن هشام (١/ ١٥٦)، سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٢٥)، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين (ص١٠)..

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٤٦) – السيرة النبوية للذهبي (١/ ٦٦٥).

مولده الشريف صلى الله عليه وسلم:

لمّا تمّت مدة حمل آمنة وضعت ولدها، فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بثّ في أرجائه روح الآداب وتمّم مكارم الأخلاق. وكان مولده الشريف صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأوّل الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل[١].

وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم. وكانت قابلته الشّفاء أم عبد الرحمن بن عوف، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشّره فأقبل مسرورا وسمّاه محمدا، ولم يكن هذا الاسم شائعا قبل ذلك عند العرب - فلم يتسمى بهذا الاسم قبله صلّى الله عليه وسلّم إلّا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلّى الله عليه وسلّم وبقرب زمانه، وأنه يبعث في الحجاز أن يكون ولدا لهم، وهم محمد بن سفيان بن مجاشع، والثاني محمد بن أحيحة والأخير محمد بن حمران بن ربيعة - ولكن أراد الله أن يحقّق ما قدره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل، فألهم جدّه أن يسميه بذلك إنفاذا لأمره، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله، وأول من أرضعه ثويبة [٢] أمة عمه أبى لهب[٣].

---

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ١٧٣).

(٢) توفيت سنة سبع، قال ابن منده: واختلف في إسلامها وقال أبو نعيم: لا أعلم أحدا ذكره .

(٣)سيرة ابن هشام (١/ ١٥٦)، سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٢٥)، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين (ص١٠).

المبحث الثالث: رضاعه صلى الله عليه وسلم

كانت أول من أرضعته -صلى الله عليه وسلم- هي أمه آمنة، قيل أرضعته ثلاثة أيام، وقيل سبعا، وقيل تسعا. ثم أرضعته ثويبة لبن ابن لها يقال له "مسروح"، أرضعته أياما، قبل أن تقدم حليمة السعدية، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه-، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي -رضي الله عنه- فكان الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وعمه حمزة، وأبو سلمة إخوة من الرضاعة [١].

رضاعه -صلى الله عليه وسلم- في بني سعد:

وكان من عادة العرب أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة، ويلتمسوا المراضع لهم في البادية حيث الجو الصافي المنطلق، حتى ينشأ الطفل صافي الذهن صحيح الجسم، فجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء في مكة فكان محمد بن عبد الله من نصيب حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة، وقد كان لرضاع محمد أثر محمود في حياتهم فاتسعت أرزاقهم بفضل الله ورحمته، وكان وجوده لديهم خيرًا وبركة [٢].

---

(١) اللؤلؤ المكنون (١/ ٨٥).

(٢) القول المبين في سيرة سيد المرسلين (٨٧).

قصة السيدة حليمة السعدية:

خرجت السيدة حليمة السعدية من بادية بني سعد كغيرها من نساء قومها يلتمسن الرضعاء من أبناء الأغنياء؛ طمعًا في الرزق واليسار، في سنة شديدة الجدب، فكان أن ظفرت بسيد الرضعاء جميعا صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن هشام:" كَانَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤيب السَّعْدية، أُمَّ رَسُولِ اللهِّ -صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّتِي أَرْضَعَتْهُ، تُحدِّث: أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا، وَابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، قَالَتْ: وَذَلِكَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ، لَمْ تُبقِ لَنَا شَيْئًا: قَالَتْ: فَخَرَجَتْ عَلَى أَتَانٍ لِي قمْراء، مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا، وَاَللهِّ مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةٍ، وَمَا نَنَامُ لَيلَنا أجمعَ مِنْ صَبِيِّنَا الَّذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ مِنْ الْجَوْعِ، مَا فِي ثَدْيَيَّ مَا يُغْنِيهِ، وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يغذِّيه وَلَكِنَّا كُنَّا نَرْجُو الغَيْث وَالْفَرَجَ، فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانِي تِلْكَ، فَلَقَدْ أدَمْتُ بالرَّكْب، حَتَّى شقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وعَجَفًا، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلَّا وَقَدْ عُرض عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِّ -صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلم- فتأباه، إذا قيل لها إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَذَلِكَ: أَنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا

نَقُولُ: يَتِيمٌ؟! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وجَدُّه؟ فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ قلتُ لِصَاحِبِي: وَاَللهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاَللهِ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ، فلآخذنَّه، قَالَ: لَا عليكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللهُ أَنْ يجعلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ: فذهبتُ إِلَيْهِ فأخذتُه، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أخذِه إِلَّا أَنِّي لَمْ أجد غيرَه.

الخير الذي أصاب السيدة حليمة وأهلها:

بدأ الخير يتدفق على السيدة حليمة رضي الله عنها، وحلت عليها بركات النبي صلى الله عليه وسلم؛ فبمجرد انطلاقها به صلى الله عليه وسلم إلى بيتها شعرت أن الرحلة في طريق العودة إلى أرض بني سعد رحلة هينة وسهلة، وما أن وصل إلى بني سعد حتى زاد الخير، وتتابعت البركات؛ فقد أنبتت الأرض بعد جدب استمر طويلا، وتحول كل شيء عند أسرتها الى خير ونعمة، ما كانت الأسرة تحلم بها ذات يوم حتى لو أرضعت ولدا لثري من أثرياء قريش، إلا أن الخير الذى جاء به الله بسبب اليتيم محمدا كان بالنسبة لها خيري الدنيا والآخرة.

وعن مظاهر هذا الخير والبركة تقول السيدة حليمة:" فَلَمَّا أخذتُه، رجعتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي فَلَمَّا وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَن، فَشَرِبَ حَتَّى رَوِيَ، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوِيَ، ثُمَّ نَامَا، وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْكَ، فَإِذَا إِنَّهَا لَحَافِلٌ، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِب، وشربتُ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا رِيًّا وَشِبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ. قَالَتْ: يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا: تعلَّمي وَاَللهِ يَا حليمةُ، لَقَدْ أخذتِ نَسمةً مُبَارَكَةً، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاَللهِ إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا وركبتُ أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا مَعِي، فَوَاَللهِ لقطعتْ بالرَّكْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهم، حَتَّى

إنَّ صَوَاحِبِي لِيَقُلْنَ لِي: يَا ابْنَةَ أَبِي ذُؤَيْب، ويحكِ! ارْبَعِي عَلَيْنَا، أليستْ هَذِهِ أتانَك الَّتِي كنتِ خَرَجْتُ عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ لَهُنَّ: بَلَى وَاَللهِّ. إنَّهَا لَهِيَ هِيَ فيقلْنَ: وَاَللهِّ إنَّ لَهَا لشأنًا. قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلَادِ بَنِي سَعْدٍ. وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللهِّ أجدبَ مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عليَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنا. فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ. وَمَا يَحْلُبُ إنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْع. حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ من قومنا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ اسْرَحُوا حَيْثُ يسرحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤيب فَتَرُوحُ أغنامُهم جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِباعا لُبَّنًا، فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنْ اللهِّ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وفصلتُه؛ وَكَانَ يشِبُّ شَبَابًا لَا يشبُّه الْغِلْمَانُ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّى كان غلامًا جَفرًا.

رجوع السيدة حليمة به إلى مكة أول مرة: قَالَتْ: فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَنَحْنُ أحرصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا؛ لِمَا كُنَّا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ؛ فَكَلَّمْنَا أمَّه، وقلتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْتُ بُنَيَّ عِنْدِي حَتَّى يغلُظَ، فَإِنِّي أَخْشَى عليه وباء مَكَّةَ قَالَتْ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّى رَدَّتْهُ معنا [١].

دروس وعبر من قصة السيدة حليمة:

أ- بركة النبي ﷺ على السيدة حليمة: فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثدييها وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في سكون الطفل ولدها، وقد كان كثير البكاء مزعجًا لأمه يؤرقها ويمنعها من النوم، فإذا هو شبعان ساكن جعل أمه تنام وتستريح، وظهرت بركته في شياههم العجفاوات التي لا تدر شيئًا، وإذا بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يُعهد [٢].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٥٠).

(٢) السيرة النبوية، الصلابي (ص٥١).

ب- كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له، وأكرم بسببه بيت حليمة السعدية التي تشرفت بإرضاعه، وليس من ذلك غرابة ولا عجب، فخلف ذلك حكمة أن يُحب أهل هذا البيت هذا الطفل ويحنوا عليه ويحسنوا في معاملته ورعايته وحضانته، وهكذا كان فقد كانوا أحرص عليه وأرحم به من أولادهم [١].

جـ- خيار الله للعبد أبرك وأفضل: اختار الله لحليمة هذا الطفل اليتيم وأخذته على مضض؛ لأنها لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله واختياره والرضا به، ولا يندم على ما مضى وما لم يقدره الله تعالى [٢].

د- أهمية تنشئة الطفل في البادية: قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: وتنشئة الأولاد في البادية ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى إلى تزكية الفطرة وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف [٣].

المبحث الرابع: حادثة شق الصدر:

مكث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند مرضعته حليمة السعدية في بادية بني سعد السنوات الأولى من عمره؛ ليجد في هواء الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو، ويزيد في وسامة خَلقه وحُسن تكوينه، يمرح في جوِّ الصحراء الطلق.

---

(١) فقه السيرة للبوطي (ص ٤٦).

(٢) السيرة النبوية، الصلابي (ص٥١).

(٣) فقه السيرة للغزالي (ص ٥٦).

وفي هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة من عمره حدثت له حادثة شق الصدر. وهذه الحادثة ترويها السيدة حليمة رضي الله عنها فتقول:" فَرَجَعْنَا بِهِ، فَوَاَللهِ إِنَّهُ بَعْدَ مَقْدِمِنَا بشهر مَعَ أَخِيهِ لَفِي بَهْم لَنَا خَلْفَ بُيُوتِنَا، إِذْ أَتَانَا أَخُوهُ يَشْتَدُّ، فَقَالَ لِي وَلِأَبِيهِ: ذَاكَ أَخِي الْقُرَشِيُّ قَدْ أَخَذَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، فَأَضْجَعَاهُ، فَشَقَّا بَطْنَهُ، فَهُمَا يَسُوطانه، قَالَتْ: فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوهُ نَحْوَهُ فَوَجَدْنَاهُ قَائِمًا مُنْتَقِعَا وجْهُه. قَالَتْ: فَالْتَزَمْتُهُ وَالْتَزَمَهُ أَبُوهُ، فَقُلْنَا لَهُ: مَا لَكَ يَا بُنَيّ، قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، فَأَضْجَعَانِي وشقَّا بَطْنِي، فالتمسا شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ. قَالَتْ: فَرَجَعْنَا إلى خِبائنا[1].

حليمة ترد محمدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى أُمِّهِ:

إن وقوع هذا الحادث كان سببًا في تعجيل إعادته صلى الله عليه وسلم إلى أمه بمكة رغم تعلق السيدة الشديد به بسبب بَركته إلا أن الخوف من أن يصيبه أذًى أو أن يمسه سوء حملها على ذلك.

تقول السيدة حليمة:" وَقَالَ لِي أَبُوهُ: يَا حَلِيمَةُ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ قَدْ أُصِيبَ، فَأَلْحِقِيهِ بِأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ بِهِ، قَالَتْ: فاحتملناه، فقدمنا به على أمّه، فقالت: مَا أَقْدَمَكَ بِهِ يَا ظِئْرُ، وَقَدْ كنتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ، وَعَلَى مُكْثِهِ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: فقد بَلَغَ اللهُ بِابْنِي وَقَضَيْتُ الَّذِي عليَّ، وتخوفتُ الْأَحْدَاثَ عَلَيْهِ، فَأَدَّيْتُهُ إِلَيْكَ كَمَا تُحِبِّينَ. قَالَتْ: مَا هَذَا شَأْنُكَ، فأصدُقيني خَبَرَكَ. قَالَتْ: فَلَمْ تَدَعْني حَتَّى أخبرتُها. قَالَتْ: أفتخوفتِ عَلَيْهِ الشيطانَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: كَلَّا. وَاَللهِ مَا للشيطان عليه من سَبِيلٍ، وَإِنَّ لِبُنَيّ لَشَأْنًا، أَفَلَا أُخْبِرُكِ خَبَرَهُ. قَالَتْ: قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: رَأَيْتُ حِينَ حملتُ به: أنه خرج مني نور أضاء قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ. ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ، فَوَاَللهِ

(١) الروض الأنف (٢/ ١٠٧).

مَا رَأَيْتُ: مِنْ حَمْلٍ قطُّ كان أخفَّ وَلَا أَيْسَرَ مِنْهُ، وَوَقَعَ حِينَ وَلَدْتُهُ وَإِنَّهُ لَوَاضِعٌ يَدَيْهِ بالأرضِ، رَافِعٌ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ. دعيه عنك، وانطلقي راشدة [١].

ما يستفاد من حادثة شق الصدر:

١- تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر عظيم.

٢- تطهير قلب الرسول صلى الله عليه وسلم من حظ الشيطان: ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك فلم يرتكب إثمًا، ولم يسجد لصنم رغم انتشار ذلك في قريش [٢].

٣- تهيئة النبي عليه السلام لتحمل الرسالة بوسائل مادية: ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته، إنها إذن عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم [٣].

٤ – التطهير من نزوات الشباب: إن إخراج العلقة منه تطهير للرسول صلى الله عليه وسلم من حالات الصبا اللاهية العابثة المستهترة، واتصافه بصفات الجد والحزم والاتزان وغيرها من صفات الرجولة الصادقة، كما تدلنا على عناية الله به وحفظه له، وأنه ليس للشيطان عليه سبيل [٤].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٥٢).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٠٤).

(٣) فقه السيرة للبوطي (ص ٤٧).

(٤) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (١/ ٥٣).

المبحث الخامس: وفاة أمه، وكفالة جده ثم عمه:

لما بلغ صلى الله عليه وسلم من العمر ست سنوات ماتت أمّه آمنة؛ وكانت قد قدمت به على أخواله من بني النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة بمكان يقال له "الأبواء" [١]، ودفنت به، فحضنته أم أيمن، وبعد وفاة أمه صلى الله عليه وسلم كفله جده عبد المطلب ابن هاشم، وكان يحبه حبا شديدا، ورقّ له رقة لم تعهد له في ولده، لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأنا عظيما في المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام؛ فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فو الله إن له لشأنا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع [٢]. وما أن تحول الرسول إلى كفالة جده عبد المطلب حتى وافته هو الآخر منيته فمات وقد تمّ للنبي صلّى الله عليه وسلم ثماني سنوات، فكفله عمه أبو طالب.

وكان أبو طالب لا مال له، وكان له قَطيعَة من إبل تكون بعرنه يبدو إليها فيكون ينشأ فيها، ويؤتى بلبنها إذا كان حاضرًا بمكة، وكان أبو طالب قد رق عليه وأحبه، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فرادي لم يَشْبَعوا، وإذا أكل معهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شبعوا، وكان إذا أراد أن يُعشِّهم أو يُغدِيهم فيقول: كما أنتم حتى يحضر ابني فيأتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيأكل معهم فكانوا

---

(١) قرية بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٦٨)، نور اليقين (ص ١١).

يفضلون من طعامهم وإن كان لبنًا شرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أولهم، ثم يتناول العيال القعب فيشربون منه فيروون عن آخرهم من القعب الواحد وإن كان أحدهم ليشرب قعبا، وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك، وكان الصبيان يصبحون شعثا رمصا، ويصبح رسول – صلى الله عليه وسلم – دهينا كحيلا [١].

الحكمة في نشأته يتيما:

ليس من قبيل المصادفة أن يولد رسول الله صلّى الله عليه وسلم يتيما، ثم لا يلبث أن يفقد جده أيضا، فينشأ النشأة الأولى من حياته بعيدا عن تربية الأب ورعايته محروما من عاطفة الأم وحنوها.

لقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة، لعلّ من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب أو إيهام الناس بأن محمدا صلّى الله عليه وسلم إنما رضع لبان دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه، بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده، ولم لا؟ وإن جده عبد المطلب كان صدرا في قومه، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية. ومن الطبيعي أن يربي الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث.

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن لا يكون للمبطلين من سبيل إلى مثل هذه الريبة، فنشّأ رسوله بعيدا عن تربية أبيه وأمه وجدّه، وحتى فترة طفولته الأولى، فقد شاء الله عز وجل أن يقضيها في بادية بني سعد بعيدا عن أسرته كلها، ولما توفي جدّه وانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب الذي امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات،

---

(١) دلائل النبوة (١/ ٢٠٩)، سيرة ابن هشام (١/ ١٦٨)..

كان من تتمة هذه الدلالة أن لا يسلم عمه، حتى لا يتوهم أن لعمه مدخلا في دعوته، وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب.

وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيما، تتولاه عناية الله وحدها بعيدا عن الذراع التي تمعن في تدليله والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني[١].

المبحث السادس: حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة:

أولا: عمله صلى الله عليه وسلم في رعي الغنم:

كان أبو طالب مُقلاً في الرزق فعمل لنبي صلى الله عليه وسلم برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه الكريمة وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم" فقال: أصحابه: وأنت؟ قال:" نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[٢]، إن رعي الغنم كان يتيح للنبي صلى الله عليه وسلم الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأشجار، يتيح له لونًا من التربية النفسية من الصبر والحلم والأنا،، والرأفة والرحمة، والعناية بالضعيف حتى يقوى وزم قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب

---

(١) فقه السيرة النبوية، البوطي (ص ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٣/ ٨٨) رقم ٢٢٦٢..

والري وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف.

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه صلى الله عليه وسلم التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات فكان رعي الغنم للنبي صلى الله عليه وسلم دربة ومرانًا له على سياسة الأمم.

دروس وعبر من رعي الغنم:

١- **الصبر**: على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظرا لبطء الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمل، وكذا تربية البشر[١].

٢- **التواضع**: إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها أو شيء من روثها فلم يتضجر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التواضع [٢].

٣- **الحلم والسكينة**: فبعضها يتقدم، وبعضها يتأخر، وبعضها يذهب شمالا، والآخر يذهب جنوبا، فإذا كان الراعي غضوبا؛ جمعها بعد شتاتها بصورة مرعبة فتبقى مجتمعة خائفة لا تاكل تخشى من عصى الراعي[٣].

٣- **الشجاعة**: فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلا بد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة تؤهله للقضاء على الوحوش ومنعها من افتراس

---

(١) محمد نبي الإسلام (ص ٤٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (ص٢١٨).

(٣) محمد نبي الإسلام (ص ٤٩).

أغنامه [١].

٤- **الرحمة والعطف**: إن الراعي يقوم بمقتضى عمله في مساعدة الغنم إن هي مرضت أو كُسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها وعلاجها والتخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان، وبخاصة إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده وإنقاذه من النار وإسعاده في الدارين[٢].

٥- **حب الكسب من عرق الجبين**: إن الله قادر على أن يغني محمدا صلى الله عليه وسلم عن رعي الغنم، ولكن هذه تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد وعرق الجبين، ورعي الغنم نوع من أنواع الكسب باليد.

ولا شك أن الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرية التامة والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفًا على وظائفهم عندهم.

إن إقبال النبي صلى الله عليه وسلم على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرزق يشير إلى دلائل هامة في شخصيته المباركة منها: الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمّل الله تعالى بهما نبيه صلى الله عليه وسلم ، لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه صلى الله عليه وسلم ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ويتعب نفسه لمساعدة عمه في مؤونة الإنفاق، وهذا يدل على شهامة في الطبع وبر في المعاملة،

---

(١) السيرة النبوية، الصلابي (ص ٥٥).

(٢) مدخل لفهم السيرة (١٢٧).

وبذل للوسع.

والدلالة الثانية: تتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا، لقد كان سهلاً على الله أن يهيئ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيًا وراء الرزق.

ولكن الحكمة الربانية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكد يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه [١].

ثانيًا: حفظ الله تعالى لنبيه قبل البعثة.

إن الله تعالى صان نبيه صلى الله عليه وسلم عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام، روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول لخديجة:" أي خديجة، والله لا أعبد اللات والعزى أبدًا"[٢] وكان لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل [٣].

أما في مرحلة شبابه صلى الله عليه وسلم؛ فقد حفظه الله تعالى من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين [٤]. فعن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ

---

(١) ينظر فقه السيرة للبوطي (ص٥٠)، فقه السيرة للغضبان (ص ٩٣).

(٢) المسند (٢٩/ ٤٦٧ح ١٧٩٤٧).

(٣) وقفات تربوية (ص٥١).

(٤) السيرة النبوية، الصلابي (١/ ٥٦).

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:" مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ مِنْهُمَا.

قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِنَا نَرْعَاهَا: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ. قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً، وَصَوْتَ دُفُوفٍ، وَمَزَامِيرَ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ، وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: مِثْلُ مَا قِيلَ لِي، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَوَاللهِ، مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللهُ بِنُبُوَّتِهِ"[1].

يقول الشيخ الشهيد البوطي رحمه الله:" وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

١ – أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متمتعًا بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميول الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها، فكان يحس بمعنى السمر واللهو، ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

---

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ١٦٩ح ٦٢٧٢).

٢- أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها فهو حتى عندما لا يجد لديه الوحي أو الشريعة التي تعصمه من الاستجابة لكثير من رغائب النفس، يجد عاصما آخر خفيا يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه مما لا يليق بمن هيأته الأقدار لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام.

وفي اجتماع هاتين الحقيقتين لديه صلّى الله عليه وسلم دليل واضح على أن ثمة عناية إلهية خاصة تسيّره وتأخذ بيده بدون وساطة الأسباب المعروفة كوسائل التربية والتوجيه، ومن ذا الذي يوجهه في طريق هذه العصمة وكل الذين حوله من أهله وبني قومه وجيرانه، غرباء عن هذا الطريق، ضالون عن هذه الوجهة؟

لا جرم إذن أن هذه العناية الإلهية الخاصة التي جعلت لشباب النبي صلّى الله عليه وسلم طريقا دقيقا من النور يمخر عباب ظلام الجاهلية، من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التي خلقه الله لها وهيأه لحمل أعبائها، وعلى أن معنى النبوة هو الأساس في تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية والفكرية والسلوكية في الحياة[١].

ثالثًا: خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الشام ولقاء بحيرا الراهب:

ولما تمّ له صلّى الله عليه وسلم من العمر اثنتا عشرة سنة، سافر عمه أبو طالب إلى الشام في ركب للتجارة، فأخذه معه. ولما نزل الركب (بصرى) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليما بالإنجيل خبيرا بشؤون النصرانية، فلما نزل الركب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال :هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله

---

١) فقه السيرة للبوطي (ص٥٠).

رحمة للعالمين. فقال له أبو طالب وأشياخ قريش: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، ثم أكرمهم بالضيافة، ثم التفت إلى أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابني. فقال له بحيرا: ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حيا. فقال: هو ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به. قال بحيرا: صدقت. فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فو الله لئن رأوه هنا ليبلغنّه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به أبو طالب عائدا إلى مكة[١].

ومما يستفاد من قصة بحيرا عدة أمور منها:

١- أن الصادقين من رهبان أهل الكتاب يعلمون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الرسول للبشرية، وعرفوا ذلك لما وجدوه من أمارات وأوصاف عنه في كتبهم[٢].

٢- إثبات سجود الشجر والحجر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتظليل الغمام له وميل فيء الشجرة عليه.

٣- أن النبي صلى الله عليه وسلم استفاد من سفره وتجواله مع عمه وبخاصة من أشياخ قريش، حيث اطلع على تجارب الآخرين وخبرتهم، والاستفادة من آرائهم، فهم أصحاب خبرة، ودراية، وتجربة لم يمر بها النبي صلى الله عليه وسلم في سنه تلك.

٤- حذر بحيرا من النصارى وناشد عمه وأشياخ مكة ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا عرفوه بالصفة يقتلونه لقد كان الرومان على علم بأن مجيء هذا الرسول

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٨٠)، الخصائص الكبرى (١/ ١٤٥).

(٢) ينظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٤٩).

سيقضي على نفوذهم الاستعماري في المنطقة، ومن ثم فهو العدو الذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرومان[١].

رابعًا: حرب الفِجَار:

ولما بلغَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أربعَ عشرةَ سنةً أو خمسَ عشرةَ سنةً هاجت حربُ الفِجارِ بين قُريشٍ ومَن معها مِن كِنانةَ وبين قَيسِ عَيلانَ من هوازن، وهو من أعظمِ أيَّامِ العربِ.

سبب حرب الفجار:

وسببها أن عروة الرحّال بن عتبة بن هوازن أجار لطيمة[٢] للنعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البرّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق فخرج بها عروة، وخرج البراض يطلب غفلته حتى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم، ثم بلغهم الخبر، فأتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أيامًا، وعاونت قريش كنانة وشهد محمد صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم [٣].

سبب تسميتها:

سميت يوم الفجار بسبب ما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٥٨).

(٢) اللطيمة: الجمال التي تحمل الطيب والبز والتجارة.

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٤).

العرب [١].

دور الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الحرب:

شارك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في هذه الحرب؛ فقد اصطحبه أعمامه معه، وقيل أنه كان يرمي معهم، وقيل: أنه كان يجمع السهام التي ترمى بها هوازن ويناولها لأعمامه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم عن تلك الحرب:" كنت أنبل على أعمامي" [٢] أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

وبذلك اكتسب صلى الله عليه وسلم الجرأة والشجاعة والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كانت كثيرًا ما تشبه حروب العرب، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم.

خامسا: حلف الفضول:

بعد حرب ضروس افترق فيها العرب بسبب الحمية والعصبية اصطلحوا وانفض القتال ، ثم انتفض فضلاء العرب لإقامة حلف يناصر كل مظلوم وضعيف حتى يمنعوا نشوب خلافات أو حدوث استضعاف أو ضياع حقوق وهذا الحلف ذكره صلى الله عليه وسلم بعد البعثة وأثنى عليه خيراً وكان صلى الله عليه وسلم وقت هذه الأحداث في سن العشرين.

وسببه: أن رجلا من زبيد (بلد باليمن) قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٥).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٦).

العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة؛ فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه، وأبرموا هذا الحلف، الذي سمي بحلف الفضول لأن من قام به كان في أسمائه الفضل، كالفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة كما ذكر ذلك البخاري في الأدب المفرد ، وقيل: سمي بذلك لأن من دعوا إليه دخلوا في فضل من الأمر.

ويعتبر هذا الحلف من مفاخر العرب قبل الإسلام ، ويظهر بريق الرضا والفرح بهذا الحلف في ثنايا الكلمات التي عبّر بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه بقوله:" لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت "[١].

الدروس المستفادة من حلف الفضول:

١- إن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية [٢].

٢- كان حلف الفضول واحة في ظلام الجاهلية، وفيه دلالة بينة على أن شيوع الفساد في نظام أو مجتمع لا يعني خلوه من أي فضيلة، فمكة مجتمع جاهلي هيمنت

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤) فقه السيرة للغضبان، (ص١٠٢).

(٢) ينظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١١٢).

عليه عبادة الأوثان والمظالم والأخلاق الذميمة كالظلم والزنا والربا، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوة ومروءة يكرهون الظلم ولا يقرونه، وفي هذا درس عظيم للدعاة في مجتمعاتهم التي لا تحكِّم الإسلام، أو تحارب الإسلام[١].

٣- إن الظلم مرفوض بأي صورة، ولو وقع الظلم على أقل الناس، إن الإسلام يحارب الظلم ويقف بجانب المظلوم دون النظر إلى لونه ودينه ووطنه وجنسه.

٤- جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذا الحال لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعًا، على ألا يكون ذلك شبيهًا بمسجد الضرار، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين ظلمًا وبغيًا، وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم، فذلك جائز لهم، على أن تلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليل. والدليل فيه قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أحب أن لي به حمر النعم» لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو النكث به مقابل حمر النعم، وقوله صلى الله عليه وسلم: «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» طالما أن يردع الظالم عن ظلمه، وقد بين صلى الله عليه وسلم استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف.

٥- وعلى المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابيًا فاعلاً، لا أن يكون رقمًا من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى ليلقبوه بالأمين وتهفو إليه قلوب الرجال

---

(١) فقه السيرة النبوية للغضبان (ص١١٠).

والنساء على السواء بسبب الخلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما زال يزكو وينمو حتى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق ولو في المجتمع المنحرف [١].

سادسا: تجارته صلى الله عليه وسلم في مال السيدة خديجة وزواجه منها .

كانت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إمرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وخرج في مالها ذلك، ومعه غلامها ميسرة، حتى قدم الشام، وباع محمد صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

فلما رأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصدقها عشرين بَكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها ، وقد ولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلامين وأربع بنات، وابناه هما: القاسم، وبه كان صلى الله عليه وسلم

---

(١) الأساس في السنة (٤/ ١٧٢)، السيرة النبوية للصلابي (١/ ٦١)، فقه السيرة للغضبان ص١١٠، ١١١

يكنى وعبد الله، ويلقب بالطاهر والطيب وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنًّا تمكنه من ركوب الدابة، ومات عبد الله وهو طفل، وذلك قبل البعثة.

أما بناته فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد أسلمن وهاجرن إلى المدينة وتزوجن. هذا وقد كان عمر الرسول صلى الله عليه وسلم حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمسًا وعشرين سنة، وكان عمرها أربعين سنة [١].

ما يستفاد من تجارته صلى الله عليه وسلم في مال السيدة خديجة:

١- إن الأمانة والصدق أهم مواصفات التاجر الناجح، وصفة الأمانة والصدق في التجارة في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم هي التي رغبت السيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به ويسافر به إلى الشام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٢- إن التجارة مورد من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وقد تدرب النبي صلى الله عليه وسلم على فنونها، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن التاجر الصدوق الأمين في هذا الدين يُحشر مع الصديقين والشهداء والنبيين، وهذه المهنة مهمة للمسلمين ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين واستعبادهم وقهرهم وإذلالهم، فهو ليس في حاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته [٢].

٣- كان زواج الحبيب المصطفى من السيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه زوجة تناسبه وتؤازره، وتخفف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤٣)، سيرة ابن إسحاق (ص٨١)، سبل الهدى والرشاد (ص ٩).

(٢) السيرة النبوية دراسة تحليلية، محمد عبد القادر .

تكاليف الرسالة وتعيش همومه [١].

٤- نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم ذاق مرارة فقْد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله –وله الحكمة البالغة– ألا يعيش له صلى الله عليه وسلم أحدٌ من الذكور حتى لا يكون مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولئلا ينتقص النبي في كمال رجولته شانئ، أو يتقول عليه متقول، ثم أخذهم في الصغر، وأيضا ليكون ذلك عزاء وسلوى للذين لا يرزقون البنين، أو يرزقون ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاء الأنبياء وكأن الله أراد للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرقة الحزينة جزءًا من كيانه؛ فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة، وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر، أما الرجل الذي خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجروحين [٢].

٥- يتضح للمسلم من خلال قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة، عدم اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتما بذلك كبقية الشباب لطمع بمن هي أقل منه سنًا، أو بمن لا تفوقه في العمر، وإنما رغب فيها النبي صلى الله عليه وسلم لشرفها ومكانتها في قومها، فقد كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة [٣].

٦- وفي زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام

---

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ١٢٢).

(٢) فقه السيرة للغزالي (ص٧٨).

(٣) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٦٤).

الحاقدين على الإسلام وقوة سلطانه من المستشرقين وعبيدهم العلمانيين الذين ظنوا أنهم وجدوا في موضوع زواج النبي صلى الله عليه وسلم مقتلا يصاب منه الإسلام، وصوروا النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذاته وشهواته، فنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية، عفيف النفس، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله، كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله، وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ويدخل في سن الشيوخ، وقد ظل هذا الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاما، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفكر في هذه الفترة بأن يضم إلى خديجة مثلها من النساء: زوجة أو أمة، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه.

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه وكمال أخلاقه [١].

٧- حصل محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الذي ناله، إذ مر بالمدينة التي هاجر إليها من بعد وجعلها مركزًا لدعوته،

---

(١) فقه السيرة، للبوطي (ص ٥٣)، السيرة النبوية للصلابي (١/ ٦٤).

وبالبلاد التي فتحها ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سببًا لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته وصدقه وكريم أخلاقه.

سابعا: اشتراكه صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة الشريفة.

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم خمسًا وثلاثين سنة على الأصح اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لما تعرضت له من العوادي التي أوهت بنيانها وصدعت جدرانها، وكان من بين هذه العوادي سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها، فلم تجد قريش بدا من هدمها وإعادة تشييدها حرصا على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضما[1] فوق القامة، ولكن الناس هابوا هدمها، وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة:" أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم نزغ، ولا نريد إلا الخير". وهدم من ناحية الركنين: فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غاديًا يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خُضرة كالأسنمة آخذ بعضها ببعض[2].

وقد شارك الرسول صلّى الله عليه وسلم قبل البعثة في بناء الكعبة وإعادة تشييدها مشاركة فعالة، فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه، ما بينها وبينه إلا إزاره، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى

---

(١) الرضم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.

(٢) ينظر: سيرة ابن إسحاق (ص١٠٥).

الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري» فشد عليه إزاره[١].

فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى؛ فمكثت قريش أربع ليال، أو خمسا، بعضهم من بعض، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا، وتناصفوا، فقال أبو أمية بن المغيرة، وكان كبيراً، وسيد قريش كلها:" يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب المسجد، فلما توافقوا على ذلك، ورضوا به، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا بما قضى بيننا، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فقال: هلموا ثوبا، فأتوه به، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر فيه بيديه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً، فرفعوه حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، ثم بنى عليه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى في الجاهلية الأمين قبل أن يوحى إليه [٢].

وأصبح ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعًا ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا، وليمنعوا الماء من التسرب إلى جوفها، وأسند سقفها إلى ستة أعمدة من الخشب، إلا أن قريشًا قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجر، وبنوا عليه جدارًا قصيرًا دلالة على أنه منها؛ لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد [٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج رقم ١٥٨٢.

(٢) سيرة ابن اسحاق (ص١٠٨).

(٣) السيرة الحلبية (١/ ٢١٠)، نور اليقين (ص١٦).

دروس وعبر وفوائد من اشتراكه صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة:

١- أهمية الكعبة، وما جعل الله لها من شرف وقداسة في الأرض، وحسبك من الأدلة على ذلك أن الذي باشر تأسيسها وبناءها هو إبراهيم خليل الله، بأمر من الله تعالى لتكون أول بيت لعبادة الله وحده ومثابة للناس وأمنا.

غير أن هذا لا يعني أو يستلزم أن يكون للكعبة تأثير على الطائفين حولها أو العاكفين فيها، فهي- على مالها من قداسة ووجاهة عظيمة عند الله- حجارة لا تضر ولا تنفع. ولكن الله عزّ وجلّ لما بعث إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتكسير الأصنام والطواغيت وهدم بيوتها والقضاء على معالمها ونسخ عبادتها، اقتضت حكمته جلّ جلاله أن يشيّد فوق الأرض بناء يكون شعارا لتوحيد الله وعبادته وحده، ويظل- مع الدهر- تعبيرا للعالم عن المعنى الصحيح للدين والعبادة وعن بطلان كل من الشرك وعبادة الأصنام[1].

٢- بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات على يقين:

فأما المرة الأولى منها: فهي التي قام بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يعينه ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة، واشترك في بنائها النبي صلى الله عليه وسلم.

والثالثة: عندما احترق البيت من رميه بالمنجنيق في زمن يزيد بن معاوية بفعل الحصار الذي ضربه الحصين السكوني على ابن الزبير حتى يستسلم، فأعاد ابن الزبير بناءها.

---

(١) فقه السيرة للبوطي (ص٥٥).

وأما الرابعة: في زمن عبد الملك بن مروان بعدما قتل ابن الزبير حيث أعاده على ما كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأن ابن الزبير باشر في رفع بناء البيت، وزاد فيه الأذرع الستة التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السماء عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، وإنما جرأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم»[1].

٣- طريقة فض التنازع كانت موفقة وعادلة، ورضي بها الجميع وحقنت دماء كثيرة، وأوقفت حروبًا طاحنة، وكان من عدل حكمه أن رضيت به جميع القبائل ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلة دون الأخرى، وهذا من توفيق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وتسديده قبل البعثة، إن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الصفا كان قدرًا من الله، لحل هذه الأزمة المستعصية، التي حُلت نفسيًّا قبل أن تحل على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمد، فهو الأمين الذي لا يظلم وهو الأمين الذي لا يحابي ولا يفسد، وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء[2].

٤- إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي صلى الله عليه وسلم الأدبية في الوسط القرشي وحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة شرفان، شرف فصل الخصومة ووقف القتال المتوقع بين قبائل قريش، وشرف تنافس عليه القوم وادخره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه

---

(١) فقه السيرة للبوطي (ص٥٦).

(٢) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٨١).

الشريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه ووضعه في مكانه من البيت [١].

٥- إن المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي وكمال التوفيق الرباني في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يلاحظ كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات بأقرب طريق وأسهله، وذلك ما تراه في حياته كلها صلى الله عليه وسلم وذلك معلم من معالم رسالته، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله [٢].

المبحث السابع: بين يدي بعثته صلى الله عليه وسلم.

ولما شاءت إرادة الله تعالى أن يختم الرسالات ببعثته؛ أراد سبحانه أن يهيء البشرية لذلك البعث المبارك؛ تبشيراً بنبوته قبل مجيئه وبعثته، فالأحداث العظيمة غالباً يسبقها من الإشارات ما يكون مؤْذِناً بقربها، وعلامة على وقوعها، ولم يطرق البشرية حدث أعظم من ميلاد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان مولده ميلاد أمة سعدت بميلادها الأمم. ومن أهم الأمور التي بشرت بقرب مبعثه صلى الله عليه وسلم ما يأتي:

١- بشارات الأنبياء به صلى الله عليه وسلم:

جاءت البشرى ببعثته صلى الله عليه وسلم قبل مولده بسنين عددا؛ فها هو نبي الله إبراهيم عليه السلام يدعو ربه أن يبعث في العرب رسولاً منهم، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، قال تعالى:" رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

(١) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٨١).

(٢) الأساس في السنة وفقهها (١/ ١٧٥).

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ" البقرة: ١٢٩.

وبشَّرتِ الكتبُ المقدَّسة السابقة على الإسلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم كانوا يعلَمون نُعُوته من كتبهم، ومِن ألسنة أحبارهم ورهبانهم، بَيْدَ أنهم كانوا يجتهدون في كتمان الحقيقة، قال الله تعالى :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٤٦.

وقال تعالى:" الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ" الأعراف: ١٥٧.

وجاء في الأسفار سفر التثنية: "إن الله تعالى من سيناء تجلَّى، وأشرق نوره من سيعير، وأطلع من جبال فاران ومعه ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم" (سفر التثنية ٣٣/ ١ – ٢).

وبشر به روح الله وكلمته عيسى عليه السلام، قال تعالى:" وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ" الصف: ٦.

وأخذ الله العهد والميثاق على جميع رسله وأنبيائه بوجوب الإيمان به، وتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به، واتباعه إن هم أدركوه كما قال تعالى:" وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ" آل عمران: ٨١.

٢- بشارات علماء أهل الكتاب ببعثته صلى الله عليه وسلم:

تواترت بشارت علماء أهل الكتاب بقرب بعثته صلى الله عليه وسلم، وكان ممن

بشر ذلك:

١- سَطِيحُ:

فقد رأى ملك اليمن ربيعة بن نصر رؤيا هاله ما جاء فيه، واسبقدم من يفسرها له، وكان من بينهم رجل من أهل الكتاب يقال له سطيح، فلما سمع الرؤيا أجابه بكلامٍ كثيرٍ في تفسيرها، وكان مما قال في باب البشارة بخاتم الأنبياء:" قال: نبي زكي، يأتيه الوحي من قبل العلي، قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر"[١].

٢- راهب عمورية:

فقد أخبر سلمان الفارسي في قصة إسلامه المشهورة عن راهب عمورية حين حضرته المنية قال لسلمان: «إنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حَرَّتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل»[٢].

٣- أحبار اليهود:

وصف الله عز وجل معرفة اليهود بالنبي صلى الله عليه وسلم بأنها معرفة تضاهي وتشابه معرفتهم بأبنائهم فقال سبحانه:" الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون" البقرة:١٤٦.

ولم تكن تلك المعرفة إلا نتاج النبوءات المتكررة التي امتلأت بها التوراة ، والتي وُصِف النبي صلى الله عليه وسلم من خلالها وصفا دقيقا ، في خَلْقِه وخُلُقِه ، بل وُصف البلد الذي

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٠٠).

يبعث فيه ، والبلد الذي يهاجر إليها.

ولعل هذه المعرفة تفسر لنا استوطان عدد من اليهود المدينة النبوية قبل البعثة ينتظرون بعثته ومقدمه، ويوصون اليهود من أهل المدينة باتباعه والإيمان به.

ومما يدل على ما ذكرنا؛ قصة ابن لْهَيَّبَانِ الذي خرج من بلاد الشام ونزل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة النبوية بسنتين، فإنه لما حضرته الوفاة قال لبني قريظة: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير –الشام– إلى أرض البؤس والجوع –يعني: الحجاز–؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إني قدمت هذه البلدة أتوكف –أنتظر– خروج نبي قد أظل زمانه، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود [١].

وقد شاع حديث ذلك وانتشر بين اليهود وغيرهم حتى بلغ درجة القطع عندهم، وبناء عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنورة: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، وكان ذلك الحديث سببًا في إسلام رجال من الأنصار وقد قالوا:" إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال اليهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم"[٢]. إلى غير ذلك من شهادات أحبار اليهود النصاري التي يضيق المقام عن ذكرها.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢١٣).

(٢) ابن هشام، بإسناد حسن (١/ ٢٣١)، انظر: صحيح السيرة النبوية (ص١٤٦).

الفصل الرابع: من البعثة إلى الهجرة المباركة

سوف تدور أحداث هذا الفصل عن فترة ما بين البعثة الشريفة وحتى الهجرة المباركة؛ وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: حب النبي صلى الله عليه وسلم للخلاء

لما قارب النبي صلى الله عليه وسلم الأربعين من عمره حبب إليه الخلاء؛ فكان يخلو في غار حراء الأيام ذوات العدد؛ يتفكر في هذا الكون وخالقه، ولم تفارقه الرحمة والإنسانية في ذلك الاختلاء؛ فقد كان الفقراء والمساكين يقصدونه صلى الله عليه وسلم في ذلك المكان البعيد فيطعمهم ويسقيهم، حتى إذا نفد الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالٍ أخرى، فلما بلغ الأربعين نبّأه الله، وأوحى إليه، وكان ذلك في ربيع الأول. وكان أول ما بدىء به النبي من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا تحقق صدقها، ورؤيا الأنبياء وحي، وقد مكث على هذه الحال ستة أشهر، وفي نهار يوم الاثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأول مرة داخل غار حراء.

عن عائشة رضي الله عنها قالت:" أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه –وهو التعبد– الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال:" **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ**

الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ " [العلق: ١: ٤]. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال:" زملوني زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر:" لقد خشيت على نفسي" فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى: فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أَوَمُخْرِجِيّ هم؟" قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي" [(١)].

دروس وفوائد من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها:

يستفاد من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عدة أمور وقضايا مهمة من أهمها:

أولا: فوائد الخلوة والعزلة:

إن لهذه الخلوة التي حببت إلى قلب رسول الله صلّى الله عليه وسلم قبيل البعثة، دلالة عظيمة جدا، لها أهمية كبرى في حياة المسلمين عامة والداعين إلى الله بصورة خاصة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدأ الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، (١/ ٧ ح ٣).

فهي توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحليا بالفضائل قائما بألوان العبادات، حتى يجمع إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة يحاسب فيها النفس، ويراقب الله تعالى، ويفكر في مظاهر الكون، ودلائل ذلك على عظمة الله.

إن للنفس آفات لا يقطع شرتها إلا دواء العزلة عن الناس، ومحاسبتها في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها. فالكبر، والعجب والحسد، والرياء، وحبّ الدنيا، كل ذلك آفات من شأنها أن تتحكم في النفس وتتغلغل إلى أعماق القلب، وتعمل عملها التهديمي في باطن الإنسان على الرغم مما قد يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحة والعبادات المبرورة، ورغم ما قد ينشغل به، من القيام بشؤون الدعوة والإرشاد وموعظة الناس. وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلي صاحبها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ليتأمل في حقيقتها ومنشئها ومدى حاجتها إلى عناية الله تعالى وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة.

تربية محبة الله عزّ وجلّ في القلب، وإنما الوسيلة إلى محبة الله تعالى- بعد الإيمان به- كثرة التفكير في آلائه ونعمه والتأمل في مدى جلاله وعظمته، ثم الإكثار من ذكره سبحانه وتعالى بالقلب واللسان. وإنما يتم كل ذلك بالعزلة والخلوة والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها في فترات متقطعة متكررة من الزمن [1].

ثانياً: أقسام الوحي:

قسم ابن القيم الوحي إلى ثماني مراتب:

١- الرؤيا الصادقة، وكان مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٦٠ وما بعدها).

٢- ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته"[١].

٣- أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا، كما في حديث جبريل المشهور، وقد تمثل للنبي صلى الله عليه وسلم بصورة الرجل الغريب ، فسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان.

وكان أحيانا يتمثل له في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي[٢]؛ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: " وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ "[٣].

٤- أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك، حتى أن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض، إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضّها.

---

(١) المعجم الكبير (٨/ ١٦٦)، وحلية الأولياء(١٠/ ٢٧) بسند صحيح.

(٢) دِحية بن خليفة بن فَرْوة بن فَضالة بن زيد بن امرئ القيس، صحابي مشهور، أول مشاهده – أي غزواته – الخندق، وقيل: أُحُد، ولم يشهد بدرا، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وقد شهد دحية اليرموك، وكان على مجموعة كبيرة من الفرسان، وقد نزل دمشق وسكن المِزَّة، وعاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه. (الإصابة" (٣/ ٣٨١ – ٣٨٣).

(٣) رواه الإمام أحمد في "المسند" (١٠ / ١٠٢) بسند صحيح.

٥- أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

٦- ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

٧- كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلّم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن. وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وسلم هو في حديث الإسراء.

٨- وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحا من غير حجاب، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف. انتهى مع تلخيص يسير في بيان المرتبة الأولى والثامنة [١].

ثالثا: حديث بدء الوحي هذا، هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته. وفهمه واليقين به هما المدخل الذي لا بدّ منه إلى اليقين بسائر ما جاء به النّبي صلّى الله عليه وسلم من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية ذلك أن حقيقة الوحي هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله، والإنسان الذي يبلغ عن ربّه دون أن يغيّر أو ينقص أو يزيد [٢].

رابعـًا: بيان مكانة العلم في هذا الدين

في بدء الوحي بـقوله تعالى"اقرأ" بيان لموقف الإسلام من القراءة، ومن العلم كله، فالقراءة أساس معرفة الدين، بها يحفظ القرآن، وتصان السنة، وتفهم الشريعة، وبها

(١) زاد المعاد (١/ ١٨).

(٢) فقه السيرة للبوطي (ص ٦٣).

تكون الدعوة، وحماية الإسلام ... وبالعلم تحيا الأمة، وتحافظ على الضرورات الشرعية جميعا، وتنظم كافة جوانب الحياة[١].

وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به ويرفع درجة أهله ويميزهم على غيرهم قال تعالى:" يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [المجادلة: ١١] وقال سبحانه" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ" [الزمر: ٩].

إن مصدر العلم النافع من الله عز وجل، فهو الذي علم بالقلم ، وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى رجع علمها وبالاً عليها وسببًا في إبادتها.

خامسًا: شدة الوحي دلالة على عظم المسئولية:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي صلى الله عليه وسلم مرارا حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من الوحي شدة وتعبًا وثقلاً كما قال تعالى:" إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلاً " [المزمل: ٥]. كان في ذلك حكمة عظيمة لعل منها:

١- بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب.

٢- ضغط جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات؛ ليجعل التفاته وفكره إليه وحده، دون الانشغال بغيره، ويعرفه بثقل الرسالة، وضخامة المسئولية، ويتعود على التلقي من الوحي فقط، وليكن صبورا حين التبليغ، ويعلم أن تكرار

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (٣٢٣).

الطلب منهج في نشر دين الله تعالى، وليتأكد صلى الله عليه وسلم بتكرار الغط أن ما يحدث حقيقة واقعية ملموسة، وليست خيالا أو وهما[١].

سادساً: أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة.

قدمت السيدة خديجة رضي الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة للزوجة العظيمة المثالية، فلقد كانت تعيش حياة رسول الله لحظة بلحظة، تتمنى له الخير، تشاركه في كل ما يعن له، وتهتم بكل ما يهمه.

لقد سخرت مالها في خدمته، فابعدت بذلك عن مشاغل الفقر ومتاعبه، ولما بدأت إرهاصات الوحي تظهر عليه مناما، ونداء، كانت تطمئنه وتهدئ من روعه وتشد من أزره.

لقد بذلت رضي الله عنها جهدا كبيرا في البحث عن حقيقة ما يرى صلى الله عليه وسلم خوفا عليه وحذرا.

فعندما أخبرها بحقيقة ما يرى؛ قالت له:" أبشر فو الله لا يفعل الله بك إلا خيرا، فاقبل الذي جاءك من عند الله فإنه حق، وأبشر فإنك رسول الله حقا.

ثم انطلقت مكانها حتى أتت غلاما لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانيا من أهل نينوى يقال له عداس، فقالت له يا عداس أذكرك بالله إلا ما أخبرتني هل عندك علم من جبريل. فقال عداس: قدوس قدوس، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان! أخبرني بعلمك فيه، قال فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى عليهما السلام [٢].

---

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (٣٢٣).

(٢) دلائل النبوة (٢/ ١٤٣).

ولم يغنها ما سمعت من عداس؛ فرجعت فأتت ابن عمها ورقة بن نوفل، فلما وصفت له شأن محمد عليه السلام صلى الله عليه وآله وسلم وذكرت له جبريل عليه السلام وما جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عز وجل قال لها ورقة: قدوس، قدوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت[١].

لقد تميزت خديجة رضي الله عنها بكمال العقل، وقد جعلت عقلها الكامل في خدمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته، وكانت رضي الله عنها خير معين له صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك بشرها الله ببيت في الجنة.

أخرج الإمام مسلم عَنْ إِسْمَاعِيلَ بن أبي خالد، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، أَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ،" بَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ، فِيهِ وَلَا نَصَبَ"[٢].

ونلحظ مدى ملاطفتها وتقديرها لزوجها في مناداته: يابن عم.. ولذلك فقد استحقت التقدير من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول صلى الله عليه وسلم: "إني رزقت حبها" [٣].

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدل على قوة قلبها، حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضت الأمر عليه.

---

(١) سيرة ابن هشام (ص١٢٢).

(٢) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين (٤/ ١٨٨٧).

(٣) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (٣٢٣).

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها، حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النبي صلى الله عليه وسلم فأدركت أن من جُبِــل على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبدًا، فقد وصفته بأنه يصل الرحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه وكسبهم بما له عليهم من معروف كان طبيعياً بأن ينجح في كسب غيرهم من الناس.

كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد صلى الله عليه وسلم من رصيد الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم في مواقف، لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم، من أصحاب المروءات في خاصة البشر.

كانت موقنة بأن زوجها فيه من خصال الجبلة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرصينة، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائز الإنسانية ما يضمن له الفوز، ويحقق له النجاح والفلاح ، فقد استدلت بكلماتها العميقة على الكمال المحمدي فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتصاف محمد صلى الله عليه وسلم بتلك الصفات على أنه لن يتعرض في حياته للخزي قط؛ لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمَّل أحدًا من عباده بفطرة

الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد صلى الله عليه وسلم بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تُطاول ولا تُسامى.

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم دليلاً على نبوته بل ذهبت إلى ابن عمها العالم الجليل ورقة بن نوفل -رحمه الله- الذي كان ينتظر ظهور نبي آخر الزمان لما عرفه من علماء أهل الكتاب على دنو زمانه واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثر طيب في تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم الذي يكون سفيرا بين الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام

لقد صدَّق ورقة بن نوفل برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة فقد جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»[1].

سابعاً : سنة تكذيب المرسلين.

بين الحديث الشريف سنة من سنن الأمم مع من جاء يدعوهم إلى الله تعالى ألا وهي سنة تكذيب الرسل واضطهادهم بل وإخراجهم من أوطانهم، فقد قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم:" يا ليتني فيها جذعاً، إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم" أَوَ مُخرجيّ هم؟" قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا" وقد قص علينا القرآن صورا من تكذيب الأمم لرسلهم؛ فقال تعالى:" وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ" [إبراهيم: ١٣].

---

(١) المستدرك (٢/ ٦٠٩) وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

وقال تعالى عن قوم لوط:" فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" [النمل: ٥٦].

وقال تعالى عن قوم نوح:" فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ" [يونس ٧٣].

وقال تعالى عن قوم شعيب:" قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ"[الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى:" جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ" [ص: ١١ – ١٤].

ثامناً: فترة الوحي:

ومعنى فترة الوحي: انقطاعه وتأخره مدة من الزمان.

يقول الحافظ ابن حجر:" وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود" [(١)].

مدة انقطاع الوحي :

اختلف العلماء في مدة تأخر الوحي؛ قال المباركفوري:" أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال والصحيح أنها كانت أيامًا وقد روى ابن سعد عن ابن

(١) فتح الباري (١/ ٢٧).

عباس ما يفيد ذلك [١]، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصف فليس بصحيح وأما ما جاء بلاغًا أنه صلى الله عليه وسلم حزن حزنًا جعله يغدو ليتردى من شواهق الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم"[٢].

الحكمة من فترة الوحي وانقطاعه

أما الحكمة الكاملة من وراء هذه الفترة فلا يعلمها إلا الله عز وجل، ولكن بالتدبُّر في فائدتها نرى أن هذا كان غالبًا لدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التشوُّق للرسالة والبحث عنها، وهو ما رأيناه في سلوكه صلى الله عليه وسلم عندما غاب عليه الوحي، فكان يُكثر من التردُّد على الجبال لعلَّه يلقى جبريل عليه السلام، وهذا التشوُّق في غاية الأهمية لحمل الرسالة؛ لأن المهمَّة ثقيلة للغاية، وكبيرة بدرجة لا تُقارن بمهمَّة أخرى من مهام الدنيا [٣].

عودة جبريل عليه السلام وتتابع الوحي:

وبعد أن تهيأت نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لحمل الأمانة، وأصبح فؤاده متشوقا لاستقبال وحي السماء؛ جاءه جبريل عليه السلام بقول الله تعالى:" يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ" [المدثر: ٢]، فأمره بالنهوض وبذل الجهد في الدعوة والإنذار والقيام بواجبات الأمانة التي كلف بها.

عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيَّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

(١) ينظر فتح الباري (١/ ٢٧).

(٢) الرحيق المختوم (ص ٥٨).

(٣) د. راغب السرجاني فترة الوحي وانقطاعه مقال منشور بموقع قصة الإسلام بتاريخ ١٨/ ١/ ٢٠١٧ ، وينظر فتح الباري (١/ ٢٧).

وَسَلَّمَ كَانَ يُحَدِّثُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ -: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ} [المدثر: ٢] فَاهْجُرْ - وَهِيَ الْأَوْثَانُ - " قَالَ: «ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ" [(١)].

وبنزول هذه الأيات الكريمة بدأ النبي صلى الله عليه وسلم مراحلة " الدعوة السرية " التي استمرت حتى نزل قول الله تعالى:" فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"، وبلغت مدتها عامين ونصفا لتبدأ مرحلة الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من بداية الوحي.

المبحث الثاني: مرحلة الدعوة السرية:

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله وإلى الإسلام سرًّا، وليس المقصود بالسرية هنا الكتمان؛ لأن الدعوة بطبيعتها تعني تبليغ الغير أمرا ليتبعه، مع ترغيبه في الاتباع، وتخويفه من الترك، كما تفيد الدعوة الطلب المتكرر، والنصح المؤكد، وإظهار الخير، والمصلحة للمدعوين، بأساليب متعددة، وبوسائل مختلفة، وإنما المقصود بالسرية هنها؛ السرية النسبية التي ظهرت خلال الحركة بالدعوة[(٢)].

الأسس التي قامت عليها الدعوة خلال هذه المرحلة:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١/ ١٤٣ح ١٦١).

(٢) ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (٤٤٣).

أولا: اقتصار الدعوة على العقيدة:

اقتصرت الدعوة في هذه المرحلة على دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، والإيمان باليوم الآخر، وترك الشرك ونبذ عبادة الأصنام، والتحلي بمكارم الأخلاق.

وعلى ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا أقرب الناس إليه ومن يرى فيهم الهدوء والسكينة وحب الخير.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ وَهُمَا يُصَلِّيَانِ – أي الرسول وزوجه خديجة –، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا مُحَمَّد مَا هَذَا؟ قَالَ: دين الله اصْطَفَى لِنَفْسِهِ، وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ فَأَدْعُوكَ إِلَى اللهَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِلَى عِبَادَتِهِ، وَأَنْ تَكْفُرَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى[1].

ثانيا: فردية الدعوة:

والمقصود بالدعوة الفردية: دعوة الناس منفردين، فالفردية هنا من حيث المدعو، وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة الناس إلى الإسلام بصورة فردية؛ فقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم السابقين إلى الإسلام كلا على حده، وأحيانا تكون الدعوة بسبب سؤال يوجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، واحيانا تكون بسبب قناعت بعض الصحابة بما كان يرى ويسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق:" ثم إن أبا بكر لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر إني رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٨).

إلى الله بالحق، فو الله إنه للحق أدعوك، إلى الله يا أبا بكر، وحده لا شريك له، ولا يعبد غيره، والموالاة على طاعته أهل طاعته، وقرأ عليه القرآن، فلم يفر، ولم ينكر، فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقر بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق"[١].

ثالثا: تخير المدعوين:

لم يكن التوجه إلى الأفراد يتم مع جميع الأفراد بصورة مطلقة، وإنما كان صلى الله عليه وسلم يتخير من يدعوهم، وهم المتصفون بالهدوء، وقلة الحديث، والتسامح، وحب الخير؛ لأن هؤلاء الأشخاص إن أسلموا لن يجاهروا بإسلامهم، ولن يظهروه لصناديد مكة وشيوخها، ولن يتحدثوا عنه إلا مع أفراد على نمطهم وصفاتهم، وإن لم يسلموا، فالصمت ديدنهم، ولن يحاولوا إيذاء محمد صلى الله عليه وسلم بالتحدث عنه، والتكلم فيما دعاهم إليه.. ولذلك نرى المسلمين الأُوَل كانوا من أمثال أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، أما عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، فقد تم عرض الإسلام عليهم في مرحلة تالية [٢].

رابعا: تجنب ذم آلهة المشركين والحديث عن ضلالاتهم:

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويعلم أصحابه العقيدة المطلوبة منهم، مع تجنب الحديث عن آلهة القوم وضلالهم مع الأصنام، لم يذم الآلهة، ولم ينقد عبدتها، وإنما اكتفى بعرض أركان العقيدة، وبيَّن مدى أحقيتها في ذاتها، وأخذ يظهر للناس ما في أنفسهم، وفي الكون من دلالات على وحدانية الله واستحقاقه وحده للعبادة.

---

(١) سيرة ابن إسحاق (ص ١٣٩).

(٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (ص٤٤٩).

والآيات التي نزلت في هذه المرحلة شاهدة على مدى ابتعاد النبي صلى الله عليه وسلم عن نقد ضلالات القوم، والاكتفاء بتربية المسلمين، وتقوية إيمانهم، ومن هذه الآيات: أوائل سورة المزمل، وأوائل سورة القلم، وهي آيات تحدد منهج التربية الإيمانية، وبناء عقيدة قوية متصلة بالله تعالى عن طريق قيام الليل، وقراءة القرآن؛ حيث يتعود المسلم بالقرآن، وقيام الليل على يقظة القلب، وقوة التأمل، وتربية الإرادة.. وبذلك يتحول العبد إلى طاقة قوية، تستفيد بما في الليل من فوائد، وتستعد لما في النهار من عمل، كل ذلك في عبودية ذاكرة، وقلب مخبت منيب.

وتؤكد الآيات عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تتحدث عن كمال عقله وكرم خلقه وعلو شأنه في الدنيا وفي الآخرة، يقول تعالى:" نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ" [القلم : ١-٥] (١).

خامسا: البدأ بدعوة الأقربين الذين يعاشرهم صلى الله عليه وسلم

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض الإسلام على الناس المختارين، وكان في تخيره لمن يدعوهم يكتفي بالأقرب إليه الذي يعايشه ويعاشره، فدعا علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وأخذ يطبق تعاليم الوحي مع هؤلاء الأقربين تاركا الآخرين لوقت يقدره الله تعالى.

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (ص٤٤٩).

وبقيت الدعوة منحصرة في هذا العدد القليل حتى أسلم أبو بكر رضي الله عنه فأظهر الإسلام، ودعا أصحابه إليه ملتزما بأهمية التخير في الدعوة كما تعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم [١].

سادسا: إسلام الضعفاء فقط:

كان الفقراء والضعفاء سباقين إلى اعتناق الإسلام، فليس لديهم ما يملكون مثل الأغنياء، ثم إن نشاطاتهم كانت منحصرة في خدمة أسيادهم، ومعظم ما يحصلون عليه من كسب لن يملكونه ويتحكمون في مصيرهم، وواصل هؤلاء الضعفاء إقبالهم على الإسلام الذي رأوا فيه تحقيقاً للخلاص من معاناتهم وهمومهم المتواصلة، ذلك أن هذا التوجه لم يكن مرضياً للأغنياء والأسياد من نواح كثيرة، أهمها التمرد على أنظمة العبادة المتوارثة واختيار لون جديد من السلوك، الذي يدعو له ويرعاه واحد من قريش هو محمد بن عبد الله.

عَنْ وَبَرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ هَمَّامٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَمَّارًا، يَقُولُ:" رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا مَعَهُ، إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ، وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ" [٢].

والعبيد هم: زيد بن حارثة، وبلال بن رباح، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية، وعبيد بن زيد الحبشي، والمرأتان هما: خديجة، وأم أيمن [٣].

---

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (ص٤٤٩) بتصرف.

(٢) صحيح البخاري كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا (٥/ ٥ح ٣٦٦٠).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٤)، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٣٠٦).

وقد قضى الله تعالى بأن يكون أتباع الدعوة الأول من الضعفاء الفقراء؛ لتنمو الدعوة على سنة البشر في التطور والتقدم، وليعلم المسلمون دائما حاجتهم الملحة للصبر والتحمل، ومواجهة الطغيان بالعفو والتسامح [١].

سابعا: التخفي في العبادة والتوجيه:

وكان من أهم سمات هذه المرحلة التخفي في الدعوة؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أصحابه ويعلمهم تعاليم الإسلام بعيدا عن أعين أهل مكة، وكان يختار لذلك الأماكن البعيدة، والتي لا يخطر على بال المكيين أن الرسول وأصحابه يذهبون إليها حتى لا تكتشف بسهولة.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى شِعَابِ مَكَّةَ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مُسْتَخْفِيًا مِنْ أَبِيهِ أَبِي طَالِبٍ. وَمِنْ جَمِيعِ أَعْمَامِهِ وَسَائِرِ قَوْمِهِ، فَيُصَلِّيَانِ الصَّلَوَاتِ فِيهَا، فَإِذَا أَمْسَيَا رَجَعَا. فَمَكَثَا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُّ أَنْ يَمْكُثَا [٢].

ومن طرق التخفي اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانا يجتمع فيه المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للتعلم والعمل.. وكان اختيار دار الأرقم ملائما للتخفي والاستتارة لعدة أسباب:

أ- تقع دار الأرقم عند الصفا، وهو مكان يتجه إليه كثير من أبناء مكة، وتوجه المسلمين إلى هذا المكان أمر عادي لا يثير تساؤلا، ولا يوقعهم في شبهة.

---

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (ص٤٥٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٦).

ب- لم يتوقع أحد من أهل مكة أن يجتمع محمد صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في دار الأرقم، ولا يمكن لهم أن يتصوروا ذلك؛ لأن الأرقم من بني مخزوم، وهي قبيلة تنافس بني هاشم في السلم والحرب، ولا يتصور أن تنشأ دعوة هاشمية في دار مخزومية.

ج- أسلم الأرقم وهو صغير لم يبلغ السادسة عشرة، وصبي في هذا العمر لا يجرؤ أن يجعل بيته مكانا لتجمع المسلمين، فلقد جرت عادة القرشيين أن يكون اجتماعهم في بيوت كبار القوم وأغنيائهم وشيوخهم.

د- إسلام الأرقم نفسه كان سرا على قبيلته، وعلى غيرهم، ولا يمكن تصور بيته حينئذ مكانا لاجتماع المسلمين؛ لأن صاحبه لم يدخل في الإسلام في نظرهم [١].

المبحث الثالث: مرحلة الجهر بالدعوة:

ثم أمر الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم بأن يصدع بالدعوة، وكان ذلك بعد مضي ثلاث سنين من عمر الدعوة.

قال ابن إسحاق:" ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من النساء والرجال حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّث به. فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه. ثم قال الله له: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [الحجر:٩٤].وقال له:" وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" [الشعراء:٢١٤ - ٢١٥] [٢].

---

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (ص٤٥٦)..

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٢).

وحينئذ بدأ رسول الله صلّى الله عليه وسلم بتنفيذ أمر ربه. فصعد على الصفا وجعل ينادي:" «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: ٢] (١).

كان رد الفعل من قريش أمام جهره بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكروا لدعوته معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذي ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم. وحينئذ نبههم الرسول صلّى الله عليه وسلم إلى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الاتّباع والتقليد، واستعمال العقل والمنطق، وأوضح لهم أن آلهتهم التي يعكفون على عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئا، وأن توارث آبائهم وأجدادهم لعبادتها ليس عذرا في اتباعهم بدون دافع إلا دافع التقليد، فلما عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، وجرّ اعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام أنها تقاليد آبائهم وأجدادهم، إلى وصف آبائهم بعدم العقل، أعظموا الأمر، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعدوانه، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وإلّا عمه أبا طالب الذي حدب عليه، ومنعه، وقام دونه (٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك الأقربين (٦/ ١١١ح ٤٧٧٠).

(٢) فقه السيرة للبوطي (ص٧٣).

دعوة عشيرته الأقربين:

ثم نزل الرسول فجمع من حوله جميع ذويه وأهل قرابته وعشيرته، فقال:« يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا [١].

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللهُّ:" وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ"[الشعراء: ٢١٤] قَالَ:" يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِّ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِّ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِّ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِّ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِّ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِّ شَيْئًا" [٢].

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى:" هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد فاصل الرسول عليه الصلاة والسلام قومه على دعوته، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التّصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبيّة القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الاتي من عند الله.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين (١/ ١٩٢ح ٢٠٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك الأقربين (٦/ ١١١ح ٤٧٧١).

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام كبير المنزلة في بلده، مرموقا بالثقة والمحبة، وها هو ذا يواجه مكة بما تكره، ويتعرّض لخصام السفهاء والكبراء، وأول قوم يغامر بخسران مودّتهم هم عشيرته الأقربون، لكنّ هذه الالام تهون في سبيل الحق الذي شرح الله به صدره، فلا عليه أن يبيت بعد هذا الإنذار ومكة تموج بالغرابة والاستنكار، وتستعدّ لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة، وتخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها.

وبدأت قريش تسير في طريقها، طريق اللّدد، ومجانبة الصواب، ومضى محمد صلى الله عليه وسلم كذلك في طريقه، يدعو إلى الله، ويتلطّف في عرض الإسلام، ويكشف النقاب عن مخازي الوثنية، ويسمع ويجيب، ويهاجم ويدافع.. غير أن حرصه على هداية اله الأقربين، جعله يجدّد مسعاه محاولا عرض الإسلام عليهم مرة أخرى، فإنّ منزلتهم الكبيرة في العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج. وهم- قبل ذلك- أهله الذين يودّ لهم الخير، ويكره لهم الوقوع في مساخط الله [1].

أساليب المشركين في مواجهة الدعوة الإسلامية

منذ أن جهر النبي - صلى الله عليه وسلم - بدعوته، وصارح قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، انفجرت مكة بمشاعر الغضب ، وظلت عشرة أعوام تعتبر المسلمين عصاةً متمردين على دين الآباء والأجداد ، ورأت قريش أنَّه لابد من مواجهة هذه الدعوة التي جاءت بتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم والقضاء على زعامتهم ، فقرروا أن لا يألوا جهداً في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه ، والحد من انتشاره ، فاتخذوا لذلك أساليب شتى وطرقاً متعددة منها:

(١) فقه السيرة للغزالي (ص١٠٥).

١ - السؤال عن مدى صدق محمد صلى الله عليه وسلم:

أخذ كفار مكة يبحثون عن مطعن يوجهونه لرسول صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا رسلهم إلى أهل الكتاب يسألون عن مدى علمهم بصدق محمد، وكيفية كشف مزاعمه، وذلك لمعرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجدونه مكتوبا في كتبهم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَعَثَتْ قُرَيْشٌ النَّضْرَ بن الْحَارِث، وَعقبَة ابْن أَبِي مُعَيْطٍ، إِلَى أَحْبَارِ يَهُودَ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالُوا لَهُمَا: سَلُوهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ وَصِفَا لَهُمْ صِفَتَهُ، وَأَخْبِرَاهُمْ بِقَوْلِهِ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَهُمْ عِلْمُ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ.

فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَا أَحْبَارَ يَهُودَ عَنْ رَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ وَبَعْضَ قَوْلِهِ، وَقَالَا: إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ، وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا.

قَالَ: فَقَالَتْ لَهُمْ أَحْبَارُ يَهُودَ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ، فَهُوَ نبى مُرْسل، وَإِن لم يفعل فَهُوَ رجل مُتَقَوِّلٌ فَرَوا فِيهِ رَأْيَكُمْ.

سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ؟ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجِيبٌ.

وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ طَافَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ نَبَؤُهُ؟ وَسَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هِيَ؟ فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَهُوَ نَبِيٌّ فَاتَّبِعُوهُ، وَإِن لم يُخْبِركُمْ فَإِنَّهُ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ، فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَا لَكُمْ.

فَأَقْبَلَ النَّضْرُ وَعُقْبَةُ حَتَّى قَدِمَا عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَصْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، قَدْ أَمَرَنَا أَحْبَارُ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أُمُورٍ. فَأَخْبَرَاهُمْ بِهَا، فَجَاءُوا

رَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا. فَسَأَلُوهُ عَمَّا أَمَرُوهُمْ بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أُخْبِرُكُمْ غَدًا بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ "، وَلَمْ يَسْتَثْنِ.

فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، وَمَكَثَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَة لَا يحدث لَهُ فِي ذَلِكَ وَحْيًا، وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَدًا، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً قَدْ أَصْبَحْنَا فِيهَا لَا يخبرنا بشئ مِمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ.

وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَثَ الْوَحْيِ عَنْهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ.

ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ اللهِّ عزوجل بِسُورَة الْكَهْف، فِيهَا مُعَاتَبَته إِيَّاه على حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وَخَبَرُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمر الْفتية وَالرجل الطّواف، وَقَالَ اللهُّ تَعَالَى: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا " [الكهف:][1].

فلما أخبرهم بنبأ ما سألوا عنه، رجعوا إلى أنفسهم، وعملوا أنه لا طاقة لهم بمواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم مواجهة عقلية فكرية؛ ولذا لجئوا إلى العدوان والإيذاء المادي، ونشر الأكاذيب والمفتريات حول محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

٢ - السخرية والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم:

أخذ كفار مكة يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ توهينا لنفسه، وصرفا للناس عنه؛ فتارة يصفونه بالمجنون، وترى يصفونه بالسحر والكذب، وتارة أخرى يستقبلونه ويشيعونه بنظرات النقمة والكراهية، وكان إذا جلس صلى الله عليه وسلم في أصحابه سخروا منهم وقالوا:" أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُّ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا " [الأنعام: ٥٣].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٨٣).

لقد كان أهل مكة يتعاملون مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه باستعلاء وجبروت، حتى أنهم جعلوا منه وم أصحابه رضوان الله عليهم مادة لسخريتهم واستهزائهم؛ فكانوا يتضاحكون من عقيدتهم، ويتغامزون بهم، وإذا رجعوا إلى بيوتهم جعلوا من سيرتهم مادة للتسلية معتقدين أنهم ضلوا الطريق بتركهم عبادة الأصنام.

يقول الله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ" [المطففين: ٢٩].

٣- بث الدعاية الكاذبة عنه:

أخذ الكفار يبثون الدعايات الكاذبة حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن القرآن الكريم الذي ينزل عليه حتى لا يصدقه أحد، فقالوا عن القرآن ما حكاه الله تعالى في قوله:" وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" [الفرقان: ٤]، وقالوا عن الرسول:" وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا" [الفرقان: ٧].

قال ابن إسحاق:" وَكَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ، وَمِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَنْصِبُ لَهُ الْعَدَاوَةَ، وَكَانَ قَدْ قَدِمَ الْحِيرَةَ، وَتَعَلَّمَ بِهَا أَحَادِيثَ مُلُوكِ الْفُرْسِ، وَأَحَادِيثَ رُسْتُمَ وَاسْبِنْدِيَارَ، فَكَانَ إِذَا جَلَسَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسًا فَذَكَّرَ فِيهِ باللهَّ، وَحَذَّرَ قَوْمَهُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ الْأُمَمِ مِنْ نِقْمَةِ اللهَّ، خَلَفَهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَاَللهَّ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ، فَهَلُمَّ إِلَيَّ، فَأَنَا أُحَدِّثُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مُلُوكِ فَارِسَ وَرُسْتُمَ

وَاسْبِنْدِيَارَ، ثمَّ يَقُول: بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنِّي؟. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيمَا بَلَغَنِي:"سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ" [الأنعام:٩٣].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ، فِيمَا بَلَغَنِي: نَزَلَ فِيهِ ثَمَانِ آيَاتٍ مِنْ الْقُرْآنِ: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:"إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قَالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ"[المطففين: ١٥] وَكُلُّ مَا ذُكِرَ فِيهِ مِنْ الْأَسَاطِيرِ مِنْ الْقُرْآنِ (١).

٤- المساومات والمفاوضات:

مع مرور الوقت وعلى الرغم مما تقدم من محاولات القضاء على الإسلام؛ فقد زادت حركة الدعوة في مكة، وقويت شوكة المسلمين فيها، وزاد عددهم، وهنا شعر أهل مكة أن الأمر قد يخرج عن سيطرته فلجأوا إلى أسلوب جديد وهو أسلوب المساومات والمفاوضات، في محاولة منهم للالتقاء عند نقطة واحدة؛ فقدموا للرسول صلى الله عليه وسلم عدة اقتراحات آملين أن يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم بأي منها؛ ومن هذه المقترحات:

أ- تكون دين مشترك

فقد عرضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتعاون معهم في خلط الإسلام بالكفر؛ ليكونا سويا دينا خليطا من هذا وذاك، وأن يعبدوا الله يوما، ويعبد محمد أصنامهم يوما آخر.

قال ابن إسحاق:" وَاعْتَرَضَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ -فِيمَا بَلَغَنِي - الأسود بن المطلب بْنِ أَسَد بْنِ عَبْدِ العُزى، والوليد بن المغيرة، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، والعاص بن وائل السهمي، وَكَانُوا ذَوي أَسْنَانٍ فِي قومِهم،

(١) سيرة ابن إسحاق (ص ٢٠١)، سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٠).

فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، هلمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تعبدُ، وَتَعْبُدُ مَا نَعْبُدُ، فَنَشْتَرِكُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي الأَمْرِ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي تَعْبُدُ خَيْرًا مِمَّا نَعْبُدُ، كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مَا نَعْبُدُ خَيْرًا مِمَّا تَعْبُدُ، كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ بِحَظِّكَ مِنْهُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فيهما :﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾]الكافرون: ١-٦[؛ أَيْ إن كنتم لا تعبدون اللهَ، إلاَّ أَنْ أَعْبُدَ مَا تَعْبُدُونَ، فَلاَ حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ مِنْكُمْ لَكُمْ دِينُكُمْ جَمِيعًا، ولي ديني[1].

وعَنِ ابن عباس رضي الله عنهما «أن قريشًا دَعَت رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم إِلَى أَنْ يُعْطُوهُ مَالاً فَيَكُونَ أَغْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا وَلا تَذْكُرْ آلِهَتَنَا بِسُوءٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً وَلَكَ فِيهَا صَلاحٌ. قَالَ» :مَا هِيَ؟ «قَالُوا: تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً. قَالَ» :حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي .«فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ الله :﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾]الكافرون: ١، ٢[[2].

ب- التنازل مقابل ما يريد من عرض الدنيا

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ:

حُدِّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَكَانَ سَيِّدًا، قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكُفُّ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزِيدُونَ

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٤٤) بإسناد حسن.

وَيَكْثُرُونَ، فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا بن أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السِّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ، قَالَ: يَا بن أَخِي، إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِئْيًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ. حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ: أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْمَعْ مِنِّي، قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَالَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَنَذِيراً، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ" [فصلت: ١-٥] ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ: قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ.

فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ باللهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي

قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاَللهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاَللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلَا بِالسِّحْرِ، وَلَا بِالْكِهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فاعتزلوه، فو الله لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاَللهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ" (١).

٥- التعذيب والبطش

عندما رأى المشركون أن أفعالهم الخبيثة لا تمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمله الدءوب، ولاحظوا أن عدد المسلمين يتزايد على الرغم من الترهيب والتخويف؛ انقلب المشركون على ضعفاء المسلمين وعبيدهم وإمائهم يسومونهم سوء العذاب، في محاولة لمنع المدِّ الإسلامي، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخاف في الله أحدًا، فلتتوجَّه الطاقات إلى إخافة المؤمنين به؛ ليردُّوهم عن دينهم إن استطاعوا، أو على الأقل ليمنعوا مَنْ يُفَكِّر في الالتحاق بهم من سلوك الطريق الذي يقود إلى التعذيب والأذى.

قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، قال: قلتُ لعبد الله بن عباس: أَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَبْلُغُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله رضي الله عنهم مِنَ الْعَذَابِ مَا يُعْذَرُونَ بِهِ فِي تَرْكِ دِينِهِمْ؟ قَالَ:" نَعَمْ وَالله، إِنْ كَانُوا لَيَضْرِبُونَ أَحَدَهُمْ وَيُجِيعُونَهُ وَيُعَطِّشُونَهُ حَتَّى مَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًا مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ؛ حَتَّى يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، حَتَّى يَقُولُوا لَهُ: آللاَّتُ وَالْعُزَّى إِلَهُكَ مِنْ دُونِ الله؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ.

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٣).

حَتَّى إِنَّ الْجُعَلَ [١] لَيَمُرُّ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَهَذَا الْجُعَلُ إِلَهُكَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. افْتِدَاءً مِنْهُمْ مِمَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِه [٢].

قال ابن كثير:" وفي مثل هذا أنزل الله تعالى:" مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" [النحل: ١٠٦] [٣].

روى البخاري عن عبد اللهَّ بْنَ مَسْعُودٍ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لاَ أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ:" اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ -، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرْعَى، فِي القَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ [٤].

---

(١) الخنفساء.

(٢) سيرة ابن إسحاق (ص ١٩٢)، البداية والنهاية (٣/ ٧٦).

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٧٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء باب: إذا ألقى على ظهر المصلي قذر (١/ ٥٧ح ٢٤٠).

إلى غير ذلك من صور الإيذاء والتعذيب البدني التي يضيق المقام عن ذكرها.

٦- محاولة قتل الرسول صلى الله عليه وسلم:

وصل حد كراهية القوم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن كفار مكة حاولوا قتله، ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله صلى الله عليه وسلم ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل، قال: قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمدا قد أَبَى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدا، فامضِ لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم، ينتظرون ما يفعله أبو جهل، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، احتمل أبو الجهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه، مرعوبا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده.

وقام إليه رجال قريش، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ول أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه [١].

المبحث الرابع: الهجرة إلى الحبشة

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه وعصمه الله منهم.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:" فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنْ الْبَلَاءِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِنْ الْعَافِيَةِ، بِمَكَانِهِ مِنْ اللهِّ وَمِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ الْبَلَاءِ، قَالَ لَهُمْ: لَوْ خَرَجْتُمْ إلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُّ لَكُمْ فَرَجًا" [٢].

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

أسباب اختيار الحبشة مهاجرا للمسلمين:

هناك عدة أسباب لاختيار النبي صلى الله عليه وسلم الحبشة؛ منها:

أ- عدل حاكم الحبشة

أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدل النجاشي في الحديث السابق بقوله لأصحابه:" لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد".

---

(١) سيرة ابن إسحاق (ص ١٩٩).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٢١).

وكان النجاشي ملكا صالحا، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يظهر هذا الصلاح عليه من خلال حمايته للمسلمين، وتأثره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه ، وكان معتقده في عيسى عليه السلام صحيحًا [١].

ب- الحبشة متجر قريش.

قال الإمام الطبري في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة:" وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رفاها من الرزق وأمنًا، ومتجرًا حسنًا" [٢].

ج- الأمن والاستقرار.

فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلد أكثر أمنًا من بلاد الحبشة، ومن المعلوم بُعد الحبشة عن سطوة قريش من جانب وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل، وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اتخاذ الحبشة مكانًا للهجرة أنها: أرض صدق، وأن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد فهي أرض صدق، وملكها عادل، وتلك من أهم سمات البلد الآمن [٣].

د- حب الرسول صلى الله عليه وسلم للحبشة ومعرفته بها

ففي حديث الزهري أن الحبشة كانت أحب الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إليها ولعل تلك المحبة لها أسباب منها:

* حكم النجاشي العادل.

---

(١) مغازي الواقدي (ص ٢١).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٤٠).

(٣) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص ١٩٠).

* التزام الأحباش بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنية.

* معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بأخبار الحبشة من خلال حاضنته أم أيمن رضي الله عنها، وأم أيمن هذه ثبت في صحيح مسلم وغيره أنها كانت حبشية، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان خبيرًا بطبائع وأحوال الدول التي في زمانه [١].

أول المهاجرين إلى الحبشية:

والهجرة الأولى إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة للبعثة وكان عدد الذين هاجروا فيها اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وقيل: أحد عشر وامرأتان، وقيل: كانوا عشر رجال وأربع نسوة، وأميرهم عثمان بن مظعون، وأنكر الزهري ذلك وقال: لم يكن لهم أمير[٢].

وكان منهم: عثمان بن عفان ومعه زوجته رقيّة بنت رسول الله عليه السلام، وأبو سلمة وزوجه أم سلمة، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون - رضي الله عنهم-، وغيرهم [٣] حيث خرجوا خفية حتى وصلوا البحر؛ فركبوا السفينة باتجاه الحبشة، وعندما علمت قريش بخبرهم تبعتهم، لكنهم كانوا قد ساروا برعاية الله، ووصلوا الحبشة وأقاموا فيها آمنين بقية رجب وشعبان ورمضان، وكانوا قد وصلتهم أخبار أنّ أهل مكة قد أعلنوا إسلامهم؛ فطفقوا عائدين، وعند مشارف مكة تبيّن لهم أنّ الأمر ليس كذلك، وأنّ أذى المشركين يزداد على الدعوة ومن آمن بها؛ فاختار بعضم الدخول إلى مكة تسلّلاً، ودخل بعضهم بجوار أحد، واختار بقيّتهم العودة إلى الحبشة[٤]

---

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص ١٩٠).

(٢) امتاع الأسماع (٩/ ١١٥).

(٣) نور اليقين (ص٥١)، فقه السيرة للبوطي (ص٩١).

(٤) اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون (١/ ٣١٦).

أهداف الهجرة إلى الحبشة:

١- حفظ الدين بحفظ حملته، فالمسلمون قد كثر عددهم، وظهر الإيمان في مكة وتحدث الناس به، وثار كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم.

٢- **البحث عن قاعدة صلبة ومكان آمن آخر للدعوة:** حيث لا تستطيع قريش مهما بلغ من عتوها أن تنهي الوجود الإسلامي في الأرض.

٣- الدعوة إلى الله ونشر دينه في الآفاق، فقد كان هؤلاء المهاجرون من الصحابة سفراء الإسلام على الأرض الجديدة، وقد أسلم على يديهم ملك الحبشة النجاشي، وعددٌ لا بأس به من أهل الحبشة، فكان ذلك فتحاً جديداً للإسلام في العالم.

عودة المهاجرين:

ولم يلبث المهاجرون إلى الحبشة إلا يسيراً حتى انتهى إلى مسامعهم أن الاضطهاد والتعذيب والتضييق على المسلمين في مكة قد خفت وطأته، وترك الكفار المسلمين أحراراً، فعاد المسلمون من الحبشة إلى ديارهم وأرضهم وأهليهم، فبينما هم على مشارف مكة إذ تأكدوا أن الأخبار التي وصلتهم غير صحيحة، وكانت قريش قد أغاظها خروج هؤلاء النفر من بينهم دون علمهم، فلما سمعوا بعودتهم أخذوهم وساموهم سوء العذاب، إلا نفراً قليلاً منهم قد دخلوا في جوار بعض سادات قريش[1].

(١) ينظر: امتاع الأسماع (٩/ ١١٥).

إسلام حمزة بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق: حدثني رجل من أسلم، كان واعية: أن أبا جهل مر برسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره؛ فلم يكلمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومولاة لعبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه، راجعا من قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة. فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم إلى بيته- قالت له: يا أبا عمارة، ولو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام: وجده ههنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد -صلى الله عليه وسلم.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معدا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به؛ فلما دخل المسجد نظهر إليه جالسا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد ذلك علي إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا، وتم حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [١].

إسلام عمر بن الخطاب

كان عمر في جاهليته من أشد الناس إيذاء للمسلمين، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرى أن في إسلامه أو إسلام أبي جهل كسبا كبيرا للإسلام والمسلمين، فلذلك كان يدعو الله أن يهدي أي الرجلين إلى الإسلام. عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" اللهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ" [٢].

سبب إسلام عمر بن الخطاب:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:" خَرَجَ عُمَرُ متقلد السَّيْفَ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ، فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تَعَمِدُ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّدًا! قَالَ: وَكَيْفَ تَأْمَنُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي زُهْرَةَ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ صَبَوْتَ وَتَرَكْتَ دِينَكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْعَجَبِ إِنَّ خَتَنَكَ وَأُخْتَكَ قَدْ صَبَوَا وَتَرَكَا دِينَكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَشَى عُمَرُ ذَامِرًا حَتَّى أَتَاهُمَا، وَعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يُقَالُ لَهُ خَبَّابٌ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابٌ بِحِسِّ عُمَرَ تَوَارَى فِي الْبَيْتِ فَدَخَلَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيْنَمَةُ الَّتِي سَمِعْتُهَا عِنْدَكُمْ؟ قال وكانوا يقرأون: طه فَقَالَا: مَا عَدَا حَدِيثًا تَحَدَّثْنَاهُ بَيْنَنَا. قَالَ: فَلَعَلَّكُمَا قَدْ صَبَوْتُمَا، فَقَالَ لَهُ خَتَنُهُ: يَا عُمَرُ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ؟ قَالَ: فَوَثَبَ

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/ ٥٠٦ح ٥٦٩٥)، والترمذي في سننه، باب مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب (٦/ ٥٨ح ٣٦٨١) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ.

عُمَرُ عَلَى خَتَنِهِ، فَوَطِئَهُ وطأ شَدِيدًا. قَالَ: فَجَاءَتْ أُخْتُهُ لِتَدْفَعَهُ عَنْ زَوْجِهَا، فَنَفَحَهَا نَفْحَةً بِيَدِهِ فَدَمِيَ وَجْهُهَا فَقَالَتْ وَهِيَ غَضْبَى: وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله.

فَقَالَ عُمَرُ أَعْطُونِي الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ عِنْدَكُمْ فَأَقْرَأَهُ. قَالَ: وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ الْكُتُبَ فَقَالَتْ أُخْتُهُ إِنَّكَ رِجْسٌ، وَإِنَّهُ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَقُمْ فَاغْتَسِلْ أَوْ تَوَضَّأْ. قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَ: طه- حَتَّى انْتَهَى إِلَى- إِنَّنِي أَنَا اللهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي، وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي [طه: ١- ١٤].

قَالَ فَقَالَ عُمَرُ: دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابٌ قَوْلَ عُمَرَ، خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا عُمَرُ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ: اللهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَوْ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ.

وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عليه وآله وَسَلَّمَ، فِي الدَّارِ الَّتِي فِي أَصْلِ الصَّفَا. قَالَ: فَانْطَلَقَ عُمَرُ، حَتَّى أَتَى الدَّارَ وَعَلَى بَابِ الدَّارِ: حَمْزَةُ وَطَلْحَةُ، ونَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَى حَمْزَةُ وَجَلَ الْقَوْمِ مِنْ عُمَرَ فَقَالَ حَمْزَةُ هَذَا عُمَرُ إِنْ يُرِدِ اللهُ بِعُمَرَ خَيْرًا يُسْلِمْ فَيَتْبَعِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ، وَإِنْ يُرِدْ غَيْرَ ذَلِكَ يَكُنْ قَتْلُهُ عَلَيْنَا هَيِّنًا.

قَالَ: وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ دَاخِلٌ يُوحَى إِلَيْهِ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، حَتَّى أَتَى عُمَرَ، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ وَحَمَائِلِ السَّيْفِ، فَقَالَ: مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ حَتَّى يُنْزِلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا أَنْزَلَ بِالْوَلِيدِ بْنِ

الْمُغِيرَةِ- فَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: اللهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ أَوِ الدِّينَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ- فَقَالَ عُمَرُ:أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ وَأَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَسْلَمَ وَقَالَ: اخْرُجْ يَا رَسُولَ اللهِ"[1].

نتائج إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما

كان إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما مرحلة جديدة نسبيًّا من مراحل الدعوة الإسلاميَّة؛ فعلى الرغم من استمرار الأمر الإلهي ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] نجد أنَّ معنويَّات المسلمين ارتفعت، واستبشروا النصر وفرح الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون فرحًا كبيرًا كما ذكرنا في قصة إسلامهما، وتغيَّرت استراتيجيَّات الدعوة الإسلاميَّة نسبيًّا، واتَّخذ الرسول صلى الله عليه وسلم سبلًا مختلفة دفعته إليها التغيُّرات الجديدة.

ومن أهم نتائج إسلامهما:

١- إعلان المسلمين إسلامهم: فقد أظهر المسلمون إسلامهم، وصاروا يتواجدون في البيت الحرام، يُؤَدُّون شعائرهم، ويطوفون بالبيت، ويُسمِعون القرآن، ويتكلَّمُون فيه مع الناس.. لقد كانت فترة جديدة لم يعهدها المسلمون من قبلُ، وهذا أورث نشاطًا دعويًّا غير مسبوق.

٢- ارتفاع الروح المعنوية عند مهاجري الحبشة: طار خبر إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما إلى الحبشة، وطارت كذلك الأنباء عن استعلان المسلمين، والحراك الدعوي الكبير الذي حدث بمكة، وهذا دعا المهاجرين إلى أن يُفَكِّرُوا في العودة إلى مكة مرَّة أخرى؛ خاصَّة أنهم لم يُقابلوا النجاشي بعدُ، وكانوا على أطراف المملكة؛ لأن إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما كان بعد هجرتهم بأيام قليلة فيما يبدو.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢١٩)، اللؤلؤ المكنون (٤٣٣).

٣- تزايد عدد المسلمين: فبعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما تزايد عدد المسلمين بشكلٍ غير مسبوق، وهذه الزيادة في عدد المسلمين كانت لها أسبابٌ واضحة.

فبعد إسلام حمزة وعمر وإعلان المسلمين لأمرهم صار متكرِّرًا في نوادي مكة وشوارعها أن يتحدَّث المسلمون عن الإسلام، ومن هنا استمع كثيرٌ من أهل مكة للقرآن، الذي حجبه عنهم كبراؤهم وزعماؤهم قبل ذلك، فكان هذا أدعى لإسلام الكثيرين.

وبعد الإعلان رأى الناس الأسماء الإسلاميَّة الكبيرة التي أخفت إسلامها قبل ذلك؛ فصارت هذه الأسماء قدوةً لشباب مكة رجالًا ونساءً، فالتحق بركبهم عددٌ آخرٌ من أهل مكة.

وبعد مراحل التعذيب والبطش اطَّلع الناس على لونٍ جديدٍ من ألوان الثبات لم يعهدوه من قبلُ، فهم لم يعرفوا في تاريخهم مَنْ ضحَّى بحياته وداره وماله ووضعه الاجتماعي من أجل اللات أو العزى أو هبل؛ لكنَّهم يجدون المسلمين يُضَحُّون بكلِّ نفيسٍ دونما تردُّد، فلا شكَّ أنَّ هذه العقيدة التي يُضَحُّون من أجلها عظيمةٌ للدرجة التي تهون أمامها الدنيا جميعًا، وهذا دفع الناس إلى معرفة هذه العقيدة.

٤- تشجيع الخائفين والمترددين على الدخول في دين الله: وإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما طمأن بعض القلوب الخائفة، وشجَّع بعض المتردِّدين، وفتح كثيرًا من الأبواب المغلقة، وكثيرٌ من الناس يحتاج إلى مثل هذا الأمان حتى يُغامر ويسبح ضدَّ التيار، وكان هذا الأمان متوفِّرًا بشكل نسبي بوجود حمزة وعمر رضي الله عنهما في الصفِّ.

كل هذا وغيره فتح قلوب أهل مكة للإسلام، فأقبلوا راغبين، وتحقَّق للدعوة في هذه السنة السادسة ما لم يتحقَّق في السنوات الخمس التي سبقتها.

وعلى الرغم من إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، ومع تزايد القوَّة الإسلاميَّة نسبيًّا، فإنَّ الإيذاء لم يتوقَّف كليَّةً، وإن لم يكن بالصورة المنهجيَّة التي كانت قبل إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما؛ بل كان يحدث بشكلٍ فردي، وعلى فتراتٍ متفاوتة، وإزاء هذا الوضع الخطير، كان لا بُدَّ من أخذ قرار جريء يحافظ على الجماعة المؤمنة؛ وكان هذا القرار هو الهجرة الثانية إلى الحبشة [١].

الهجرة الثانية إلى الحبشة

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا ونالوهم بالأذى، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإليَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعًا» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله".

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم وعدتهم -كما قال ابن إسحاق وغيره ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم واثنان وثمانون رجلاً إن لم يكن فيهم، وثماني

---

(١) إسلام حمزة وعمر وتغيُّر استراتيجية الدعوة، د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام https://www.islamstory.com/ar/artical/٣٤٠٦٦٩٥/.

عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيات، وسبع غير قرشيات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارًا، ثم الذين ولدوا لهم فيها [١].

محاولة قريش استرجاع مهاجري الحبشة:

كان هذا العدد الكبير الذي هاجر في هذه المرة مقلقًا لقريش، فأخذت الظنون والوساوس الشيطانية تلعب بعقولهم، ففكروا في سد هذا الطريق على المسلمين، وأرسلوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ومعهما الهدايا النفيسة إلى النجاشي لكي يرد المسلمين إلى مكة، فلما دخلا عليه قالا: أيها الملك إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا أشراف قومهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه[٢].

النجاشي يرفض طلب قريش:

وقد أبى النجاشي أن يرد المسلمين الذين هاجروا إليه حتى يسمع مقالتهم ويبعث في طلبهم.

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد

---

(١) المواهب اللدنية (٢/ ٣١).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٥).

من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- قالت: فعدد عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت:

فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه صدرا من: «كهيعص ١٩: ١» . قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا

والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون[1].

عمرو بن العاص يحاول تأليب النجاشي على المهاجرين

فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاما، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودا، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي- والشيوم: الآمنون- من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم. ما أحب أن لي دبرا من ذهب، وأني آذيت رجلا منكم- قال ابن هشام: ويقال دبرا من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم والدبر: (بلسان الحبشة) : الجبل- ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله

(١) ينظر سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٥).

مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه [١] وحينئذٍ عاد عمرو وصاحبه إلى مكة دون أن ينجحا في مهمتهما. وعاش المسلمون إلى جوار النجاشي بخير دار، مع خير جار، واستقروا إلى أن كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة.

دروس وعبر وفوائد من الهجرة إلى الحبشة

١- شفقة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على أصحابه ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عما فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى الملك العادل الذي لا يُظلم أحد عنده.

٢- اختيار نوعيات معينة من المهاجرين لتحقيق أهداف الهجرة: كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددة، ولذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على اختيار نوعيات معينة لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضية الإسلام وموقف قريش منه، وإقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين، وغير ذلك.

٣- إن وجود ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقية رضي الله عنهم جميعًا في مقدمة المهاجرين له دلالة عميقة تشير إلى أن الأخطار لا بد أن يتجشمها المقربون إلى القائد وأهله ورحمه، أما أن يكون خواص القائد في منأى عن الخطر، ويدفع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة فهو منهج بعيد عن نهج النبي صلى الله عليه وسلم.

٤- إن اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطة إستراتيجية هامة، تمثلت في معرفة الرسول بما حوله من الدول والممالك، فكان يعلم

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٧).

طيبها من خبيثها، وعادلها من ظالمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة الذي لا بد أن يكون ملمًّا بما يجري حوله، مطلعًا على أحوال وأوضاع الأمم والحكومات.

٥- لم ترض قريش بخروج المسلمين إلى الحبشة وشعرت بالخطر الذي يهدد مصالحها في المستقبل، فربما تكبر الجالية هناك وتصبح قوة خطرة، ولذلك جد المشركون وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريش تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع هذا الموقع الجديد منهم في تخطيط محكم ذكي، فالهدايا إلى النجاشي والهدايا إلى بطارقته ووضعت الخطة داخل مكة، وكيف توزع الهدايا، وما نوعية الكلام الذي يرافق الهدايا، وصفات السفراء، فعمرو من أصدقاء النجاشي ومعروف بالدهاء! وما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدونا، وألا ننام عن مخططاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقي، وندرس تحركاته، لنستعد لمواجهة مخططاته الماكرة.

٦- اجتمع الصحابة حين جاءهم رسول النجاشي وطلب منهم الحضور، وتدارسوا الموقف، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكل أمر يتم عن طريق الشورى هو أدعى إلى نجاحه؛ لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة، وتبدو مظاهر السمو التربوي في كون الصحابة لم يختلفوا بل أجمعوا على رأي واحد، ألا وهو أن يعرض الإسلام كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كائنًا في ذلك ما هو كائن، وعزموا على عرض الإسلام بعزة، وإن كان في ذلك هلاكهم [١].

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (١/ ٢٠٢).

المبحث الخامس: المقاطعة العامة:

لقد وقعت لقريش خلال هذه الفترة بعض الحوادث الضخمة التي أثارت حفيظتهم، وجعلتهم يسرعون الخطى في إيذاء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منها: إسلام حمزة، ثم إسلام عمر، ثم رفض محمد صلى الله عليه وسلم مساومتهم، وما كان من فعل النجاشي بالقادمين عليه وإكرامه لهم.

فاجتمعت قريش على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيةً، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حميةً، ومنهم من فعله إيماناً ويقينًا، فلما عرفت قريش اجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب فتحالفوا، على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق ألايقبلوا من بني هاشم صلحا أبدا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا، إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم [1].

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣١١)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣).

قال ابن كثير يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت يده [١].

فلما تم هذا الميثاق، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، إنحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم- إلا أبا لهب- وحبسوا في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة [٢].

وفي شعب أبي طالب اشتد الحصار على الصحابة وعلى بني هاشم وبني المطلب، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعاما يدخل مكة ولا بيعا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون (يبكون) من الجوع، وقريش تحول بينهم وبين التجار، فيزيدون عليهم السلعة أضعافاً حتى لا يشتروها[٣].

قال السهيلي: كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام قوتا لعياله، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار! غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئا، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن الأخسار عليكم. فيزيدون عليهم السلعة قيمتها أضعافا، حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على

(١) الفصول في السيرة (ص ١٠٢).

(٢) امتاع الأسماع (١/ ٤٤)، الرحيق المختوم (ص ٩٧).

(٣) سيرة ابن إسحاق (ص ١٦٠)، الروض الأنف (٣/ ٢١٧).

أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعا وعريا [١].

وروى يونس عن سعد بن أبي وقاص، قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها، ورضضتها، وسففتها بالماء، فقويت بها ثلاثا [٢].

وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الإشتراء [٣].

وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوي الرحمة من قريش، فكان أحدهم يوقر البعير زادا، ثم يضربه في اتجاه الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين، فيخفّف شيئا مما بهم من إعياء وفاقة [٤].

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحا إلى عمته خديجة - رضي الله عنها- وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه فتدخل بينهما أبو البختري، ومكنه من حمل القمح إلى عمته [٥].

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضطجع على فراشه، حتى يرى

---

(١) الروض الأنف (٣/ ٢١٧).

(٢) الروض الأنف (٣/ ٢١٦).

(٣) الرحيق المختوم (ص ٩٨).

(٤) فقه السيرة، للغزالي (ص١٢٨).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٤).

ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يأتي بعض فرشهم[١].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام[٢].

نقض الصحيفة

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك، وفي المحرم سنة عشر من النبوة؛ قام نفر من قريش، من أهل المروءة والضّمائر، في مقدّمتهم هشام بن عمرو بن ربيعة، فكرهوا هذا التعاقد الظالم، وعافته نفوسهم، وكان هشام رجلا واصلا، وكان ذا شرف في قومه، وقد ساءته حال المسلمين، ورأى ما هم فيه من عناء؛ فمشى إلى زهير بن أبي أمية؛ وكان شديد الغيرة على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير! أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت؟!.

أما إنّي أحلف بالله: لو كانوا أخوال أبي الحكم- يعني أبا جهل- ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبدا! فقال: فماذا أصنع وإنّما أنا رجل واحد؟! والله لو كان معي رجل اخر لنقضتها! فقال: قد وجدت رجلا، قال: ومن هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا ثالثا، فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له: أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد ذلك موافق فيه؟! أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنّهم إلى مثلها منكم أسرع!! قال: ما أصنع؟ إنّما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانيا، قال: من هو؟

---

(١) السيرة لابن كثير (٢/ ٤٤).

(٢) الرحيق المختوم (ص٩٨).

قال: أنا. قال: ابغنا ثالثا، قال: قد فعلت. قال: من هو! قال زهير بن أبي أمية. قال: ابغنا رابعا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام؛ وقال له نحوا مما قال للمطعم. قال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: أنا وزهير والمطعم، قال: ابغنا خامسا، فذهب إلى زمعة بن الأسود، فكلّمه، وذكر له قرابته، قال: وهل على هذا الأمر معين؟ قال: نعم. وسمّى له القوم.

فاتعدوا (خطم الحجون) الذي بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، وتعاقدوا على القيام في نقض الصحيفة، فقال زهير: أنا أبدؤكم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة! أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!! قال أبو جهل: كذبت والله لا تشقّ، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا بها حين كتبت! وقال أبو البختري: صدق والله زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، وقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك!! وقال هشام بن عمرو نحوا من هذا، فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل! وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. إنما جاءهم لأن الله كان قد اطلع رسوله على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا: «باسمك اللهم" [١].

تم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم كما أخبر الله عنهم، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا، وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ [القمر: ٢] أعرضوا من هذه الآية وازدادوا كفرا إلى كفرهم [٢].

الدروس المستفادة من المقاطعة العامة

١- لقد فكر الأعداء تفكيراً جماعياً جاداً منظماً ومعتمداً على التخطيط الدقيق لضرب الحركة الإسلامية، وذلك حينما بدأت قاعدتها في الرسوخ، ونجحت في جذب العناصر القوية إليها، وبدأت تفكر في الحماية الأمنية اللازمة حتى تؤدي رسالتها للعالمين، عندئذ أدرك الأعداء أنه لا بد من القضاء على هذه الدعوة في مهدها، فكانت فكرة الحصار الاقتصادي وسياسة التجويع أملاً يداعب حلمهم ويطفئ ثورة حقدهم. ولكن الله خذلهم فأعز دينه وأتم نوره وازدادت الدعوة صلابة وقوة وازداد أصحابها يقيناً وتضحيات؛ فلا بد إذن من اليقين بأن الله متم نوره ولو كره الكافرون، وأن هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار مهما مكر الأعداء بأهله ((وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)) [الأنفال: ٣٠].

٢- لقد تجرع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم مرارة هذا الحصار وتقلبوا في لظى هذه المؤامرة الخبيثة عندما أُطبِقَ عليهم بسياج من الظلم المكشوف المتمثل في تلك

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٥).

(٢) الرحيق المختوم (ص٦٦).

الصحيفة الجائرة، فصبروا حتى أتاهم نصر الله. لقد كانو يقدرون مسؤولية تبليغ الرسالة الملقاة على كواهلهم، وكانوا يدركون حقيقة هذه الرسالة وطبيعتها، وأنها لا بد أن تبلَّغ للناس بجهد من البشر، وفي حدود قدراتهم؛ فكان الصبر على مثل هذا البلاء نِعْمَ الزاد الذي يتناسب وطبيعة الطريق. لقد كانت التربية الجادة على منهج القرآن الكريم عاملاً مهماً من عوامل الصمود والتحدي أمام الباطل وأهله، ولقد كانت تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابة على الصبر مقصودة في حد ذاتها؛ لأنه يعلم ويريد أن يعلمهم أن النصر مع الصبر، وأن البلاء سُنَّة ماضية، وأن أهل الإيمان لا بد أن يتعرضوا للفتن تمحيصاً وإعداداً. قال الله تعالى:" أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ" [العنكبوت: ٢].

٣- لقد تجلت التضحيات والمواقف النبيلة للثبات على المبدأ الحق عند الصحابة الكرام بما يبهر العقول وتعجز عن وصفه الألسن، ولذلك لم يكن مثل هذا المكر السيئ والكيد المسعور ليثنيهم عن واجب عظيم ورسالة قد آمنوا بها وأُشرِبوا حبها وعاهدوا الله على الجهاد في سبيل نشرها. إن الثبات والاستمرار في الدعوة علامة على صدق الداعية وإخلاصه وفهمه السليم لطبيعة الدعوة وحقيقتها، وإن التراجع أو الانتكاسة في منتصف الطريق وعند المنعطفات الحرجة التي تمر بها الدعوة يعد علامة على ضعف الإيمان وتزعزع اليقين وحب الدنيا والخلود إليها.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:" وفي أيام الشِّعب كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وفد؛

فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات؛ بل يزيد جذورها عمقاً، وفروعها امتداداً، وقد كسب الإسلام أنصاراً كثراً في هذه المرحلة" [١].

٤- لقد وقف الكفار من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم موقفاً حسناً؛ إذ دخلوا معه ومع أصحابه في الشِّعب حمية منهم وتقديراً ولا شك في ذلك لما تميز به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من حسن الخلق وحسن المعاملة معهم. فما أجمل الإحسان إلى الناس! وما أحق الأقربين بالمعروف! وأفضلُ الإحسان إلى هؤلاء هو دعوتهم للخير والأخذ بأيديهم إلى رياض الإيمان.

والداعية بلا شك معرض للأذى والخطر من أهل الشر الكارهين للدعوة ولمن يقوم بها؛ ولذلك لا بد له من حماية. وعشيرة الداعية وأقرباؤه هم أكثر الناس استعداداً لمثل هذه الحماية؛ وخاصة إذا مَنَّ الله عليهم بنور هذه الدعوة وصبروا على ما يلاقون في سبيل نشرها من الأذى؛ فإنهم حينئذ في مقام كريم " ومَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَذِينَ صَبَرُوا ومَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" [فصلت: ٣٥].

٥- لا بد أن ندرك أن الأعداء يبذلون الكثير من المال من أجل نشر باطلهم والصد عن سبيل الله؛ فمن أجل تلكم الأزمة الاقتصادية دُفعت الأموال الطائلة للضغط على الأجساد والبطون، ولكنهم لم يجدوا إلى القلوب المؤمنة سبيلاً، وما زال الأعداء ولا يزالون ينفقون بسخاء في سبيل الظلم والطغيان ونشر الكفر والإلحاد وتشجيع الفجور والإباحية عن طريق المؤسسات الإعلامية والمؤسسات التنصيرية والمؤسسات الفكرية وغيرها؛ كل ذلك ليصدوا الناس عن الحق " إنَّ الَذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

(١) فقه السيرة للغزالي (ص١٢٩).

لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهَّ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ" [الأنفال: ٣٦.[

٦- لقد استطاع نفر من الناس بعمل يسيرٍ مواجهة أزمة دامت ثلاث سنوات خطط لها أصحابها وأحكموا تنفيذها ودعموا استمراريتها بكامل قواهم السياسية والاجتماعية.

٧- إن الحكمة وحسن التخطيط من أساسيات الدعوة إلى الله تعالى وكم نحن في حاجة إليه؛ لأن العشوائية وارتجال المواقف والتكبر عن طلب النصح والمشورة قد جنت الدعوة من ويلاتها العلقم المر حتى أصبح التخطيط والتنظيم ضرورة دعوية على مختلف المستويات لا يكاد يختلف عليها اثنان ممن يعرفون طبيعة الدعوة ومخططات أعدائها؛ وخصوصاً في مثل هذا العصر المشحون بالفتن والمغريات.

٨- إن أصحاب النفوذ والقوة كلماتهم مسموعة وأمرهم مطاع في غالب الأحيان؛ ولكن الذي يؤسف له هو عدم الروية والتفكر فيما يأمرون به وينهون عنه؛ فهؤلاء النفر الذين سعوا في نقض الصحيفة كانوا ولا شك على علم بها منذ بداية أمرها فوافقوا عليها حينئذ مكرهين إكراهاً معنوياً حتى لا يشذوا عن الصف ويكونوا محل اتهام من أصحاب القرار؛ ولكنهم فيما بعد فعلوا الذي فعلوا، بل وبينوا أنهم لم يكونوا راضين عن هذه الصحيفة عند كتابتها، ولم يستشرهم فيها أحد، بل تشاور فيها الملأ ولم يستأذنوا فيها العامة، ولهذا أدرك هؤلاء الرهط أن هذه السابقة تنبئ عن خطر عظيم تكنه نفوس القوم الذين سعوا في كتابة هذه الصحيفة.

٩- يجب ألا يغفل الدعاة إلى الله عن الاهتمام برؤوس الناس وقادتهم الذين يؤثرون فيهم سلباً وإيجاباً وحسن العلاقة معهم؛ فقد يتحقق على أيديهم نفع عظيم للدعوة ولو لم يكونوا على قدر من الاستقامة.

١٠- ينبغي ألا يعرض عن أهل الباطل بالكلية؛ فإن منهم أناساً مأسورين إما بشهواتهم وأهوائهم أو بتأثير من شياطين الجن والإنس، وبعض هؤلاء قد لا يحتاجون إلى كبير جهد ليميزوا بين الحق والباطل فيتبعون الحق ويعز الله بهم الدين.

١١- من الحكمة اتخاذ الأسلوب الحكيم والحجة البالغة في الحوار واهتبال الوقت المناسب له ليؤدي نتيجة مثمرة؛ فإن الرهط الذين سعى إليهم هشام ليتفق معهم على نقض الصحيفة لم يعترض منهم أحد؛ ولعله قد اختار الأشخاص المناسبين لهذا الحدث حسب معرفته بالرجال ومواقفهم السابقة من الدعوة وحسب تقديره لما يتطلبه الموقف.

١٢- يراعى جانب من بدرت منه بادرة طيبة وموقف حسن من الدعوة؛ فإن مثل هذا غالباً مهيأ في مستقبل الأيام ليكون له شأن آخر ومواقف مباركة، فلا بد أن يشجع ويشكر على مواقفه تلك لعله يكون رصيداً لمستقبل الدعوة [١].

المبحث السادس: عام الحزن:

ولم يشأ الله لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أن ينعم بعد خروجه من الشعب بفترة طويلة من الراحة والطمأنينة، إذ لم تمض عدة شهور على تمزيق صحيفة المقاطعة وخروجه مع أهله إلى الحياة، حتى فاجأت محمدًا -صلى الله عليه وسلم- في عام واحد فاجعتان اهتز لهما قلبه، وهما: موت أبي طالب، وموت السيدة خديجة -رضي الله

(١) حصار الشعب والدروس المستفادة منه، إبراهيم محمد عباس مجلة البيان (١٣/ ٧٦) بتصرف.

عنها- ولقد حزن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليهما حزنًا شديدًا لما كان لهما من أثر بالغ في نصرة الإسلام والدفاع عنه ضد أعدائه [١].

أما عمه أبو طالب فقد كانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر. وقيل: توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام[٢].

وعلى الرغم مما كان عليه من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذي تحتمي به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح.

لقد كانت أفكار الجاهلية راسخة في عقل أبي طالب، ولم يتمكن من تغييرها، فهو شيخ كبير يصعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره فأثروا عليه خوفًا من شيوع خبر إسلامه وتأثير ذلك على قومه.

ففي الصحيح عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ» فَنَزَلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

(١) القول المبين (ص١٤٨).

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص (١١١).

لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]. وَنَزَلَتْ: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦] (١).

وعن عَبْدُ اللهَّ بْنُ الحَارِثِ، حَدَّثَنَا العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ، قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» (٢).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ» حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ وَالدَّرَاوَرْدِيُّ، عَنْ يَزِيدَ بِهَذَا، وَقَالَ «تَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ» (٣).

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لموت أبي طالب حزنا شديدا، ألم يكن الحصن الذي تحتمي به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء؟! وها قد ولّى الرجل الذي سخّر جاهه وسلطانه في الذود عن ابن أخيه وكفّ العوادي أن تناله. إن قريشا أصبحت لا تهاب في محمّد عليه الصلاة والسلام أحدا بعده (٤).

فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلّم من الأذى ما لم تطمع فيه في حياة أبي طالب.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٥/ ٥٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٥/ ٥٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٥/ ٥٢).

(٤) فقه السيرة للغزالي (١٣٣).

روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما نالت منّي قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب" [١]، وذلك أنّهم تجرؤوا عليه، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ، رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ - قَلِيبِ بَدْرٍ [٢].

---

(١) حديث ضعيف، أخرجه ابن إسحاق (١/ ٢٥٨)، بسند صحيح عن عروة بن الزبير مرسلا.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (٣/ ١٤١٨ح ١٧٩٤).

وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها.

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة- على اختلاف القولين- توفيت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، كانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الخمسين من عمره [١].

وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزيرة صدق، كما كانت نعم الزوجة الصالحة العاقلة، يجد فيها سكن النفس وطمأنينة القلب وراحة الروح، فكان كلما ناله من قريش أذى عاد إليها فتزيل عنه اثار الأذى بيديها، وتسرّي عن نفسه بقلبها وحنانها وحديثها المؤمن المستطاب [٢].

وكانت إقامتها معه خمسا وعشرين سنة على الصحيح، وقد أفنى زهرة الشباب، وميعة الكهولة، ولم يشأ أن يتزوج عليها؛ وفاء لها وتقديرا لخدماتها، وحرصا على عدم تكدير خاطرها، وإيلام نفسها بإدخال ضرّة عليها مهما كانت، فقد هيأت له صلّى الله عليه وسلّم كل أسباب الراحة النفسية، والبدنية، والمالية، والمعيشية، فكان صنع رسول الله معها ردا للجميل بمثله أو بأكثر منه [٣].

وقد حزن النبي صلى الله عليه وسلم لوفاتها حزنا شديدا حتى عرف ذلك في نفسه صلى الله عليه وسلم، فقالت له خولة بنت حكيم: يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خلّة لفقد خديجة قال:" أجل، كانت أم العيال، وربة البيت" [٤].

---

(١) الرحيق المختوم (ص١٠٤).

(٢) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٣٩٧).

(٣) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٣٩٧)..

(٤) الطبقات الكبرى (٨/ ٤٥).

يقول الشيخ الغزالي:" إنّ خديجة من نعم الله الجليلة على محمد عليه الصلاة والسلام، فقد ازرته في أحرج الأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالته، وشاركته مغارم الجهاد المر، وواسته بنفسها ومالها، وإنك لتحسّ قدر هذه النعمة عند ما تعلم أنّ من زوجات الأنبياء من خنّ الرسالة، وكفرن برجالهنّ، وكنّ مع المشركين من قومهن والهن حربا على الله ورسوله: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِّ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ" [التحريم: ١٠] .

أما خديجة فهي صدّيقة النساء، حنّت على رجلها ساعة القلق، وكانت نسمة سلام وبر، رطّبت جبينه المتصبّب من اثار الوحي، وبقيت ربع قرن معه، تحترم قبل الرسالة تأمّله وعزلته وشمائله، وتتحمّل بعد الرسالة كيد الخصوم، والام الحصار، ومتاعب الدعوة، وماتت والرسول صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره، وهي تجاوزت الخامسة والستين، وقد أخلص لذكراها طول حياته" [١].

وبموت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها بدأ النبي صلى الله عليه وسلم مرحلة واجه فيها كثيرًا من المشكلات والمصاعب، والمحن والفتن وعلى الرغم من ذلك فقد مضى في تبليغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وتحمل صلى الله عليه وسلم في سبيل ذلك ما تنوء به الجبال، ولما تكالبت عليه الفتن والمحن في مكة، وسدت في وجهه كل طرق الدعوة إلى الله، عزم صلى الله عليه وسلم على أن ينتقل إلى بلد غير بلده وقوم غير قومه يعرض عليهم دعوته، ويلتمس منهم نصرتهم رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إلى الطائف، وهي من أقرب البلاد إلى مكة.

---

(١) فقه السيرة (ص١٣١).

المبحث السابع: رحلة الطائف:

الأسباب التي دعت الرسول لاختيار الطائف.

لم يكن اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لمدينة الطائف اختيارًا عشوائيًّا؛ بل كان اختيارًا مدروسًا؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم كان سياسيًّا بارعًا، وقائدًا محنَّكًا، يدرس كلَّ خطوةٍ بدقَّةٍ شديدة، فالطائف تتميَّز عن غيرها من مدن الجزيرة بعدَّة صفات:

فأولًا: تُعتبر الطائف هي المدينة الثانية في الجزيرة العربيَّة بعد مكة، ومركزًا حيويًّا مهمًّا من مراكز الكثافة السكانيَّة والتجارة، ولها مكانةٌ في قلوب العرب؛ حتى إنَّ المشركين كانوا يقولون: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [الزخرف: ٣١]، والقريتان هما مكة والطائف.

ثانيًا: تسكن في الطائف قبيلة ثقيف، وهي من أقوى القبائل العربيَّة، ولو آمنت لكانت سندًا عظيمًا للدعوة، بقوَّة جيشها، وكثرة عددها؛ خاصَّةً أنَّ الظاهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت أنَّ قريشًا ستظلُّ تُحارب الإسلام في المستقبل، وقد بلغ من قوَّة ثقيف أنَّها القبيلة الوحيدة التي استعصى على المسلمين بعد ذلك دخول بلدها عَنْوة حتى جاء أهلها مسلمين طوعًا.

ثالثًا: كانت المنافسة الدينية بين مكة والطائف كبيرة، فمكة وإن كان بها البيت الحرام ، وبها -أيضًا- الصنم الذي كان يُقَدِّسه كثيرٌ من العرب وهو هُبَل، فإنَّ الطائف كان بها صنمٌ آخر من أهمِّ أصنام العرب وهو اللات، وكثيرًا ما كان يُقْسِم به العرب على اختلاف قبائلهم، أمَّا صنم العُزَّى فكان في وادي نخلة على مقربةٍ

-أيضًا- من الطائف، فلو ذهب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته فلعلَّهم يدخلون فيها طمعًا في سحب البساط من تحت أقدام أهل مكة.

رابعًا: الطائف قريبة نسبيًّا من مكة؛ فالمسافة حوالي مائة كيلومتر، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يُريد أن يبعد كثيرًا عن مركزه الأول، الذي تعيش فيه طائفة كبيرة نسبيًّا من المؤمنين؛ فالتعاون والتنسيق بين المركزين سيكون أسهل لو كانت المسافة قريبة؛ خاصَّة في هذا الزمن الذي كانت فيه الانتقالات شاقَّة، والطرق وعرة.

خامسًا: كان لأغنياء قريش أملاك في الطائف، خاصَّةً بني هاشم وبني عبد شمس وكذلك بني مخزوم، فلو دخلت الطائف في الإسلام لكان ذلك ضربة اقتصاديَّة موجعة لقريش.

إذًا في الحسابات البشريَّة كانت الطائف مكانًا مناسبًا للدعوة؛ ومن ثَمَّ عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم على الذهاب إلى هناك [١].

تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم نحو الطائف

خرج إليها صلى الله عليه وسلم في شوال في السنة العاشرة من النبوة[٢] والمسافة بين مكة والطائف حوالي مائة كيلومتر تقريبًا، قرر النبي صلى الله عليه وسلم قطعها على الأقدام على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة في هذه المنطقة الصحراويَّة المشهورة بشدَّة الحرِّ.

---

(١) د. راغب السرجاني رحلة الطائف . أسباب الاختيار ./https://www.islamstory.com/ar/artical/٢٢٥

(٢) الطبقات الكبرى ١/ ١٦٥، عيون الأثر ١/ ١٥٥..

عن عبد الله بن جعفر قال: لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى الطَّائِفِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ (١).

ولعل السر في خروجه صلى الله عليه وسلم ماشيا هو أَنَّه لم يُرِدْ أن يلفت أنظار المشركين إليه، وهذا من حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم وخبرته الأمنية، وأخذه بأسباب الحيطة والسلامة .

ولنفس السبب اصطحب النبي صلى الله عليه وسلم معه مولاه زيد بن حارثة فقط، وكان قد أعتقه وتبنَّاه، وأطلق عليه زيد بن محمد، فرؤية زيد رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مستغربة، وفي الوقت نفسه فزيد يحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حبًّا شديدًا، ويستطيع خدمته وحمايته والتضحية من أجله، وقد ظهر ذلك بوضوح بعد زيارة الطائف وما حدث فيها، وزيد بن حارثة لم يكن صغيرًا في هذه الرحلة؛ بل كان يبلغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا، وبالتالي فهو عقلٌ راجحٌ يُستشار في أمور الرحلة، ويُعْتَمد عليه في تدبير أمورها.

الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف

وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فأقام بها مدة يدعو ثقيفا إلى سبيل الله تعالى، فلم يجد أذانا صاغية، وكان ممن قابلهم ثلاثة من أشرافهم: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، وكانوا سادة ثقيف وأشرافها، وكانت عند

(١) الطبراني: المعجم الكبير ١٣/ ٧٣ (١٨١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. [مجمع الزوائد ٦/ ٣٥، وقال الصوياني: حديثٌ حسنٌ بشواهده. السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ١/ ١٧٨].

أحدهم صفية بنت معمر القرشي الجمحي، فجلس إليهم، وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

فقال أحدهم: هو يمرط [١] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الثاني: أما وجد الله أحدا غيرك يرسله، وأما الثالث فكان أعقل منهما فقال:

والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسول الله لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك [٢].

فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من عندهم، وقد يئس من مناصرتهم له، وقال لهم:" إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني" كراهة أن يبلغ قومه عنه مجيئه لهم فيزدادوا إيذاء له ولأصحابه، وكان القوم لئاما فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتى دميت عقباه، وتلطّخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف وزيد بن حارثة مولاه يدرأ عنه ويدفع حتى أصيب في وجهه بشجاج، وما زالوا بهما حتى ألجأوهما إلى حائط- بستان- لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فكره مكانهما لعداوتهما الله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحا من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، ولم يحركا ساكنا، ولعلهما كانا يتلذذان من هذا المشهد الذي شفى نفوسهما من الرسول [٣].

---

(١) يمرط الشيء: ينزعه ويرمي به.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤١٩).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٠)، عيون الأثر (١/ ١٥٦)، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٠١).

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي:

في هذه الغمرة من الأسى والحزن، والالام النفسية والجسمانية توجه الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيمانا ويقينا، ورضى بما ناله في الله، واسترضاء لله، قال:" اللَّهمّ إلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ" (١).

العبر والعظات:

١- يلمح في هذا الدعاء عمق توحيد النبي صلى الله عليه وسلم ومبلغ تجرده لله عز وجل وعلا.

٢ – أن مرضات الله تعالى هي الهدف الأسمى، والمطلب الأعظم الذي يسعى إليه رسول الله صلى الله عليه والذي تسخر له كل المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى، من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه فحيهلا بالبلاء، وهو ساعتئذ نعمة ورخاء.

٣- تبرأ الرسول من حوله وقوته: ويبدو ذلك واضحا عندما يختم رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها، وعلم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره «ولا حول ولا قوة إلا بك» فلا تحول للمؤمن من حال الشدة إلى حال

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٠)، دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٦٧).

الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوة على مواجهة الشدائد وتحمل المكاره إلا بالله جل وعلا.

٤- إن الدعاء من أعظم العبادات، وهو سلاح فعال في مجال الحماية للإنسان وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشري من الذكاء والدهاء فهو عرضة للزلل والإخفاق، وقد تمر على المسلم مواقف يعجز فيها عن التفكير والتدبير تمامًا، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدعاء، ليجد فرجا ومخرجًا، فعندما لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الطائف الأذى والطرد والسخرية والاستهزاء وأصبح هائما على وجهه، لجأ إلى الله بالدعاء فما أن انتهى من الدعاء حتى جاءت الإجابة من رب العالمين مع جبريل وملك الجبال (١).

قصة عدّاس

فَلَمَّا رَآهُ ابْنَا رَبِيعَةَ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ، وَمَا لَقِيَ، تَحَرَّكَتْ لَهُ رَحِمُهُمَا، فَدَعَوْا غُلَامًا لَهُمَا نَصْرَانِيًّا، يُقَالُ لَهُ عَدَّاسٌ، فَقَالَا لَهُ: خُذْ قِطْفًا مِنْ هَذَا) الْعِنَبِ، فَضَعْهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ، ثُمَّ اذْهَبْ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقُلْ لَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ.

فَفَعَلَ عَدَّاسٌ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُلْ، فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ يَدَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهَّ، ثُمَّ أَكَلَ، فَنَظَرَ عَدَّاسٌ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاَللهَّ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ، وَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: نَصْرَانِيٌّ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى [٢]، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (١/ ٣٢٢).

(٢) بكسر أوله وسكون ثانية وفتح النون والواو، وهي قرية يونس بن متى بالموصل من أرض العراق.

وَسَلَّمَ: مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، فَقَالَ لَهُ عَدَّاسٌ: وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكَ أَخِي، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ، فَأَكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ.

فقال ابْنَا رَبِيعَةَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَمَّا غُلَامُكَ فَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْكَ. فَلَمَّا جَاءَهُمَا عَدَّاسٌ، قَالَا لَهُ: وَيْلَكَ يَا عدّاس! مَا لَكَ تُقَبِّلُ رَأْسَ هَذَا الرَّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ؟ قَالَ: يَا سَيِّدِي مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ، قَالَا لَهُ: وَيْحَكَ يَا عَدَّاسُ، لَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْ دِينِكَ، فَإِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ [١].

لقد كان إسلام عداس، وإيمانه ويقينه القوي بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهادته بفضله عند بني قومه؛ مواساة للرسول صلى الله عليه وسلم وبشرى بأن هذا الرسول إن لم ينصره قومه فسوف يسوق الله إليه من ينصره من شتى بقاع الأرض.

العودة إلى مكة:

وبعد هذه الاستراحة والتقاط الأنفاس؛ خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الحائط متوجها إلى مكة محزونا كسير القلب، لكن الله الرؤف الرحيم أراد أن يطمئن قلبه وأن يسري عنه ما يجد؛ فما أن بلغ قرن المنازل [٢] حتى بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين [٣] على أهل مكة.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢١).

(٢) قرن المنازل وتسمى أيضا قرن الثعالب، وهي ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة منه، وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير والثعالب جمع ثعلب وهو الحيوان المشهور ولعله سمي الموضع بذلك لكثرة الثعالب فيه (معجم البلدان ٤/ ٣٣٢).

(٣) جبلي مكة أبي قبيس ومقابله قعيقعان سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما يقال رجل أخشب إذا كان صلب العظام قليل اللحم.

روى الإمام البخاري عن عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا "[1].

إن ما جاء به ملك الجبال يدخل تحت أسلوب الاستئصال، وقد نفذ في قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط قال تعالى:" فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [العنكبوت: ٤٠].

ولم يثن هذا الإيذاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن مهمته كداعية. بل عرض عليه من ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين. فأبى عليه الصلاة والسلام قائلا: إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله. إن مهمة السياسي أن ينتصر، أما مهمة الداعية أن تنتصر دعوته. وحين يخير بين الأمرين فيختار دعوته

(١) صحيح البخاري كتاب بدأ الخلق، باب ذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ وَالمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ، آمِينَ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ (٤/ ١١٥ح ٣٢٣١).

على شخصه. وكم من الدعاة بحاجة إلى أن يتعمق هذا المعنى في نفوسهم.

إننا لا يمكن أن نتصور مثل هذه النماذج في الوجود، ولكن لنحاول الارتفاع إلى أفقها السامي، فأقبح رد وألأم معاملة تصل إلى الحد الذي ذكرته الروايات (رجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه ويقيمونه. فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه شجاجا). ومع ذلك يأتيه العرض من ربه تعالى أن ينتقم له ويثأر له. وليس عرضا من حليف أرضي، ولا من شيطان مريد. بل من رب العالمين، ومع هذا كله فيملك الخيار ويرجو ربه أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله [١].

إسلام نفر من الجن:

وبعد هذا اللقاء الذي أراح القلب؛ سار النبي صلى الله عليه وسلم متوجها في طرق العودة إلى مكة حتى وصل وادي نخلة [٢]قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم فيما ذكر لي سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل:" وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية (١/ ١٣٦).

(٢) أحد واديين على لَيْلَة من مَكَّة، يُقَال لأَحَدهمَا نَخْلَة الشامية، وَللْآخر نَخْلَة اليمانية.

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ"[الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وقال تبارك وتعالى:" قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن" [الجن: ١] . إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة [١].

العبر والعظات:

أولا: في استماع النفر من الجن إليه صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي من جوف الليل بنخلة، دليل على وجود الجن وأنهم مكلفون، وأن منهم من آمن بالله ورسوله ومنهم من كفر ولم يؤمن. وقد ارتفعت هذه الدلالة إلى درجة القطع، بحديث القرآن عنهم في نصوص قاطعة صريحة، كالآيات الواردة في صورة الأحقاف والتي في صدر سورة الجن [٢].

ثانيا: ومن سياق هذه الآيات- وكذا من سياق الروايات التي وردت في تفسير هذا الحادث- يتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف بحضور ذلك النفر من الجن، وإنما علم ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ويقتضي سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارا.

وحقا كان هذا الحادث نصرا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٩).

(٢) فقه السيرة للبوطي (ص١٠٤).

بنجاح دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها [١].

ثالثا: أمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكابة والحزن واليأس، التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودا مدحورا، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحماس [٢].

الرسول يدخل مكة في جوار المطعم بن عدي

كانت قريش قد بلغها ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف، وكيف رده أهلها هذا الرد القبيح؛ فعزمت على منعه من العودة إلى مكة، حتى لا يجد مكانا يأويه، أو أناسا يحمونه. ومع ذلك أصر رسول الله على العودة إلى مكة، حت قال له زيد بن حارثة رضي الله عنه:" كَيفَ تدخُل عَلَيْهِم وهم أَخرجوك؟ فَقَالَ: " يَا زيد، إنَّ الله جاعلٌ لِما ترى فَرَجَاً ومَخْرَجاً، وإنَّ الله ناصرُ دينه، ومُظهر نبيّه " [٣].

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا شارب على ديار مكة أقم بحراء ثم أخذ يراسل من يرجو منه الخير من كبراء مكة حتى يدخل في جواره.

فأرسل إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عارم لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح، وكونوا

---

(١) الرحيق المختوم (ص ١١٥).

(٢) الرحيق المختوم (ص ١١٦)..

(٣) سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٤٠).

عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدا، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ادخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته [١].

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعما: أمجير أنت أم متابع- مسلم-؟ قال: بل مجير.

قال: قد أجرنا من أجرت [٢].

وقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع، فقال في أساري بدر: لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النُتنى لتركتهم له [٣].

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨١).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨١).

(٣) الرحيق المختوم (ص ١١٦).

عرض الإسلام على القبائل والأفراد وإسلام بعضهم.

دخل النبي مكة في حماية المطعم واستقر بها، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلا مستضعفين، ممن آمن به. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به [١].

فكان صلى الله عليه وسلم يمر على مجالس العرب ومنازلهم، فإذا رأى قوما وقف عليهم وقال:" إني رسول الله إليكم! يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وتصدقوني؛ وخلفه عبد العزى أبو لهب بن عبد المطلب عمه يقول: يا قوم لا تقبلوا منه، فإنه كذاب- حتى أتى كندة في منازلهم فعرض عليهم نفسه ودعاهم إلى الله، فأبوا أن يستجيبوا له؛ ثم أتى كلبا في منازلهم فكلم بطنا منهم يقال له بنو عبد الله، فجعل يدعوهم حتى أنه ليقول لهم: «يا بني عبد الله! إن الله قد أحسن اسم أبيكم، إني رسوله فاتبعوني حتى أنفذ أمره، فلم يقبلوا منه؛ ثم أتى بني حنيفة في منازلهم فردوا عليه ما كلمهم به، ولم يكن من قبائل العرب أعنف ردا عليه منهم؛ ثم أتى بني عامر بن صعصعة في منازلهم فدعاهم إلى الله، فقال قائل منهم: إن اتبعناك وصدقناك فنصرك الله ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛" الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقالوا: أنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر في غيرنا! لا حاجة لنا في هذا من أمرك [٢].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٢).

(٢) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء (١/ ١٠٢).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرك في المواسم التجارية ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل، وفق خطة سياسية دعوية واضحة المعالم ومحددة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصديق، الرجل الذي تخصص في معرفة أنساب العرب وتاريخها، وكانا يقصدان غرر الناس ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه يسأل وجوه القبائل ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرض دعوته" [١].

إسلام الطفيل بن عمر الدوسيّ

كان من نتائج هذا الجهد المتواصل في الدعوة إلى الله تعالى أن أسلم الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم الدوسيّ، ودعا له رسول اللهَّ صلّى اللهَّ عليه وسلّم أن يجعل اللهَّ له آية، فجعل اللهَّ له في وجهه نورا، فقال: يا رسول اللهَّ، أخشى أن يقولوا هذا مثلة، فدعا له فصار النور في سوطه، فهو المعروف بذي النور. ودعا الطفيل قومه دوسا إلى اللهَّ، فأسلم بعضهم، وأقام في بلاده حتى قدم على رسول اللهَّ صلّى اللهَّ عليه وسلّم بعد فتح خيبر في نحو ثمانين بيتا [٢].

المبحث الثامن: رحلة الإسراء والمعراج:

في وسط كل هذه الآلام والأحزان، التي تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم في العام العاشر من البعثة وبعد أحداث جعلت المؤرخين يُطلقون تسمية" عام الحزن"على هذا العام الصعب، جاءت رحلة الإسراء والمعراج لتُخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من أحزانه تمامًا؛ بل لتُخرجه من الأرض بكاملها إلى السماء؛ بل من الدنيا بكل

(١) عيون الأثر (١/ ١٧٧).

(٢) إمتاع الأسماع (١/ ٤٧).

همومها إلى الآخرة بكل نعيمها؛ حقًّا ما أسعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة وبعدها، ولا شكَّ أن نظرته للمكذبين من أهل مكة والعرب له صارت أكثر شفقة عليهم، وأقلَّ غضبًا منهم؛ فقد رأى بعينه المصير التعيس الذي يُقبِلون عليه، ورأى النعيم المقيم الذي يضيع منهم، فصار همُّه كلُّه أن يستنقذهم من النار مهما تعرَّض للأذى منهم، وطابت نفسه الكريمة صلى الله عليه وسلم لكل ألم يُعانيه من أجل تحقيق الهداية له [١].

وقد ترجم هو صلى الله عليه وسلم هذه الروح الرفيقة إلى كلمات من نور، فقال – كما روى أبو هريرة رضي الله عنه: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا" [٢].

وقد وقعت معجزة الإسراء والمعراج وقد اختلف في تاريخ وقوعها، والمؤكد أنها وقعت قبل الهجرة في السنة العاشرة من بعثته أو بعدها، والصحيح الذي عليه جماهير العلماء أنهما وقعا في ليلة واحدة يقظة بالجسد والروح، أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماوات العلى، ثم عاد إلى بيته في مكة تلك الليلة [٣].

والإسراء: هو إذهاب الله نبيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء– مدينة القدس– في جزء من الليل، ثم رجوعه من ليلته.

---

(١) الإسراء والمعراج دروس وعبر، د راغب السرجاني https://www.islamstory.com/ar/artical/٣٩٢/ .

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، (٦١١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرُّهم، (٢٢٨٤).

(٣) السيرة النبوية دروس وعبر (ص٥٥).

المعراج: هو إصعاده صلّى الله عليه وسلّم من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما فوق السبع، حيث فرضت الصلوات الخمس، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.

وهى معجزة ثابتة بالكتاب والسنة؛ فالإسراء ثابت بالقران الكريم، والأحاديث الصحيحة المتكاثرة.

أما من القرآن فقوله سبحانه:" سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" [الإسراء:١].

وأما من السنة؛ فما روي عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهَّ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلاَ اللهُّ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْه"(١).

وأما المعراج فهو ثابت بالأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات العدول، وتلقتها الأمة بالقبول.

ويرى بعض العلماء أن المعراج وإن لم يثبت بالقران الكريم صراحة، ولكنه أشير إليه في سورة النجم في قوله تعالى:" وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (١٤) عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (١٦) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (١٧) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى" [النجم : ١٣- ١٨](٢).

ومن الأحاديث التي تناولت معجزة الإسراء والمعراج ما يأتي:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء (٥/ ٢٥ح٣٨٨٦)..

(٢) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٠٩).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: " بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ، - وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ - مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَقَدَّ: قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ - فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصِّهِ إِلَى شِعْرَتِهِ - فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ، وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ، - فَقَالَ لَهُ الجَارُودُ: هُوَ البُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ أَنَسٌ: نَعَمْ - يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلاَمَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ، قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا، ثُمَّ قَالاَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ:

مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلاَمًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلاَمَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ

يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي"(١).

وقد تكفّلت بعض روايات الإمام مسلم في صحيحه ببيان مجيء النبي بيت المقدس، ودخوله به، وصلاته فيه ركعتين، وعرض جبريل عليه بعد خروجه إناءين: إناء من خمر، وإناء من لبن، فاختار اللبن.

وأن الله تبارك وتعالى قال: «يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر- يعني حسنات- فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

وروى الإمام مسلم عن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، لَعَلَّهُ قَالَ: عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (٥/ ٢٥ح٣٨٨٧).

وَالْيَقْظَانِ، إِذْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: أَحَدُ الثَّلَاثَةِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، فَأُتِيتُ فَانْطُلِقَ بِي، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَشُرِحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَكَذَا - قَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ لِلَّذِي مَعِي مَا يَعْنِي قَالَ: إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ - فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي، فَغُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ، ثُمَّ حُشِيَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُقَالُ لَهُ: الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفَتَحَ لَنَا، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ "، قَالَ: «فَأَتَيْنَا عَلَى آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ «لَقِيَ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ عِيسَى، وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِي الثَّالِثَةِ يُوسُفَ، وَفِي الرَّابِعَةِ إِدْرِيسَ، وَفِي الْخَامِسَةِ هَارُونَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، قَالَ: " ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا جَاوَزْتُهُ بَكَى، فَنُودِيَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: رَبِّ، هَذَا غُلَامٌ بَعَثْتَهُ بَعْدِي يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِهِ الْجَنَّةَ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي "، قَالَ: «ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ: وَحَدَّثَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، " أَنَّهُ رَأَى أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ؟ قَالَ: أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا خَمْرٌ، وَالْآخَرُ لَبَنٌ،

فَعُرِضَا عَلَيَّ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقِيلَ: أَصَبْتَ أَصَابَ اللهُ بِكَ أُمَّتُكَ عَلَى الْفِطْرَةِ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسُونَ صَلَاةً" (١).

وكذلك تكفّلت بعض الكتاب الحديثية الاخرى ببيان ما راه النبي في مسراه من مكة إلى بيت المقدس، حيث ضربت له الأمثال لبعض الفضائل والرذائل، وصلاته صلّى الله عليه وسلّم ركعتين بطور سيناء، وببيت لحم وبالمدينة، وصلاته بالأنبياء في بيت المقدس، وثناء الأنبياء على ربّهم، وثناء النبي على ربه، وقد ذكر الكثير من هذه الروايات الدالة على ذلك ابن كثير في تفسيره، والحافظ ابن حجر في «الفتح»، وقد ذكرت كل هذا وغيره كرؤية النبي صلّى الله عليه وسلّم لربه، وأهي بعيني بصره؟ أم بعيني قلبه وبصيرته؟! إلى غير ذلك من المباحث المحرّرة الشيقة في كتابي «الإسراء والمعراج» فليرجع إليه من يشاء التزيد من روايات الإسراء والمعراج (٢).

موقف أهل مكة من الإسراء والمعراج

كلف الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُخْبِر أهل مكة المشركين عن رحلة الإسراء فقط؛ أما رحلة المعراج فهي للمؤمنين فقط، والسرُّ في ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن أن يُقَدِّم أدلة مادية على صدقه في رحلة الإسراء، أما رحلة المعراج فلن يؤمن بها ويُصَدِّقها إلا مَنْ آمن بقدرة الله سبحانه، وتيقَّن من صدق الرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومن ثَمَّ فلا معنى للحديث عنها مع أولئك المشركين الذين لا يؤمنون بالله أصلاً ولا برسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات (١/ ١٤٩ح ١٦٤).

(٢) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٢٧).

ومن الأحاديث التى رصدت ردود الأفعال في مكة؛ ما يأتي:

١- روى الإمام أحمد -بإسناد صحيح- عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ. فَقَعَدَ مُعْتَزِلاً حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ به عَدُوُّ الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نَعَمْ ."قال: ما هو؟ قال: "إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ". قال: إلى أين؟ قال : "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟" قال: ثم أصبحتَ بين ظَهْرَانَيْنَا؟ قال" :نَعَمْ". قَالَ: فَلَمْ يُرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "نَعَمْ". فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي. فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ". قالوا: إلى أين؟ قال: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ."قالوا: ثم أصبحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قال: "نَعَمْ". قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلكَذِبِ زَعَمَ، قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ". قَالَ: "فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عُقَيْلٍ فَنَعَتُّهُ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ". قَالَ: "وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ". قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَاب [1].

(١) مسند أحمد (٥/ ٢٨ح ٢٨١٩).

٢- وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ". قَالَ: "فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ"[١].

٣- وروى الشيخان عن جابر بن عبد الله، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلاَ اللهُ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ" [٢].

٤- وروى البيهقي -بإسناد صحيح- عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قال" :قلنا: يا رسول الله، كيف أُسْرِيَ بِكَ؟ قال: "صَلَّيْتُ لأَصْحَابِي صَلاَةَ الْعَتَمَةِ بِمَكَّةَ مُعْتَمًّا، وَأَتَانِي جِبْرِيلُ عليه السلام بِدَابَّةٍ بَيْضَاءَ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، فَقَالَ: ارْكَبْ فَاسْتَصْعَبَتْ عَلَيَّ، فَدَارَهَا بِأُذُنِهَا، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهَا، فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا: يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، حَتَّى بَلَغْنَا أَرْضًا ذات نخل فَأَنْزَلَنِي، فَقَالَ: صَلِّ. فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا فَقَالَ :أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ. قَالَ: صَلَّيْتَ بِيَثْرِبَ، صَلَّيْتَ بِطَيْبَةَ. فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا فَقَالَ :انْزِلْ. فَنَزَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: صَلِّ. فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ. قَالَ : صَلَّيْتَ بِمَدْيَنَ، صَلَّيْتَ عِنْدَ شَجَرَةِ مُوسَى عليه السلام، ثُمَّ انْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا بَدَتْ لَنَا قُصُورٌ، فَقَالَ :انْزِلْ. فَنَزَلْتُ، فَقَالَ: صَلِّ. فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا، قَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ. قَالَ :صَلَّيْتَ بِبَيْتِ

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١/ ١٥٦ح ١٧٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء (٥/ ٥٢ح ٣٨٨٦).

لَحْمٍ، حَيْثُ وُلِدَ عِيسَى عليه السلام المسيح ابن مَرْيَمَ. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ مِنْ بَابِهَا الْيَمَانِيِّ، فَأَتَى قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ فَرَبَطَ بِهِ دَابَّتَهُ، وَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ مِنْ بَابٍ فِيهِ تَمِيلُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، فَصَلَّيْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، وَأَخَذَنِي مِنَ الْعَطَشِ أَشَدُّ مَا أَخَذَنِي، فَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ، وَفِي الآخَرِ عَسَلٌ، أُرْسِلَ إِلَيَّ بِهِمَا جَمِيعًا، فَعَدَلْتُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ هَدَانِي اللهُ عز وجل فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ، حَتَّى قَرَعْتُ بِهِ جَبِينِي، وَبَيْنَ يَدَيَّ شَيْخٌ مُتَّكِئٌ عَلَى مَثْرَاةٍ لَهُ، فَقَالَ: أَخَذَ صَاحِبُكَ الْفِطْرَةَ إِنَّهُ لَيُهْدَى. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى أَتَيْنَا الْوَادِي الَّذِي فِي الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَهَنَّمُ تَنْكَشِفُ عَنْ مِثْلِ الزَّرَابِيِّ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ وَجَدْتَهَا؟ قَالَ: "مِثْلُ الْحُمَةِ السُّخْنَةِ، ثُمَّ انْصَرَفَ بِي فَمَرَرْنَا بِعِيرٍ لِقُرَيْشٍ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ، فَجَمَعَهُ فُلاَنٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا صَوْتُ مُحَمَّدٍ. ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ الصُّبْحِ بِمَكَّةَ، فَأَتَانِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ كُنْتَ اللَّيْلَةَ فَقَدِ الْتَمَسْتُكَ فِي مَكَانِكَ. فَقَالَ عَلِمْتَ أَنِّي أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ اللَّيْلَةَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ فَصِفْهُ لِي. قَالَ: فَفُتِحَ لِي صِرَاطٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ فِيهِ؛ لاَ يَسْلُنِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُ عَنْهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ :انْظُرُوا إِلَى ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ اللَّيْلَةَ". قال: فقال: "إِنَّ مِنْ آيَةِ مَا أَقُولُ لَكُمْ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ فَجَمَعَهُ فُلاَنٌ، وَإِنَّ مَسِيرَهُمْ يَنْزِلُونَ بِكَذَا ثُمَّ بِكَذَا، وَيَأْتُونَكُمْ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَقْدُمُهُمْ جَمَلٌ آدَمُ عَلَيْهِ مِسْحٌ أَسْوَدُ وَغِرَارَتَانِ سَوْدَاوَانِ". فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ أَشْرَفَ النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ حَتَّى كَانَ قَرِيبٌ مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ حَتَّى أَقْبَلَتِ الْعِيرُ يَقْدُمُهُمْ ذَلِكَ الْجَمَلُ الَّذِي وَصَفَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم" [1].

(١) دلائل النبوة ٢/ ٣٥٥، وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٧١٥٨).

وروى أحمد -بإسناد صحيح- عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ، وَبِعَلاَمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَبِعِيرِهِمْ، فَقَالَ نَاسٌ: نَحْنُ نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ؟ -وفي رواية أخرى عند أبي يعلى والنسائي بسند صحيح: "فَقَالَ نَاسٌ: نَحْنُ لاَ نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ!" فَارْتَدُّوا كُفَّارًا، فَضَرَبَ اللهُ أَعْنَاقَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا، فَتَزَقَّمُوا. وَرَأَى الدَّجَّالَ فِي صُورَتِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ، لَيْسَ رُؤْيَا مَنَامٍ، وَعِيسَى، وَمُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ"، فَسُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الدَّجَّالِ؟ فَقَالَ: "أَقْمَرُ هِجَانًا" -قَالَ حَسَنٌ: قَالَ: "رَأَيْتُهُ فَيْلَمَانِيًّا أَقْمَرَ هِجَانًا (الأبيض) إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ، كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ، وَرَأَيْتُ عِيسَى شَابًّا أَبْيَضَ، جَعْدَ الرَّأْسِ، حَدِيدَ الْبَصَرِ، مُبَطَّنَ الْخَلْقِ، وَرَأَيْتُ مُوسَى أَسْحَمَ آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعْرِ شَدِيدَ الْخَلْقِ، وَنَظَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَلاَ أَنْظُرُ إِلَى إِرْبٍ مِنْ آرَابِهِ، إِلاَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي، كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه اللام: سَلِّمْ عَلَى مَالِكٍ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ"[1].

وروى الحاكم في مستدركه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى المسجد الأقصى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بكر رضي الله عنه، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. قَالَ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ .قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ

(١) المسند (٥/ ٤٧٦ح ٣٥٤٤).

الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لأَصُدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ؛ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ. فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أبو بكر الصديق"[1].

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [الإسراء ٦٠:] قَالَ: "هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ، أُرِيَهَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ"، قَالَ:" وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ"، قَالَ: "هِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ"[2].

من مجموع الروايات السابقة نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر الناس في اليوم التالي للإسراء والمعراج بما تمَّ له في الإسراء دون المعراج، ومع ذلك كان الأمر فتنة كبيرة للناس، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أقام الحجَّة البالغة على صدق كلامه؛ فإضافة إلى إخباره بأمر العير وما حدث معها، فإنه شرح للناس شكل المسجد الأقصى وصورته، ووصف تفصيلات لا يعرفها رجل لم يَزُرْ هذا المكان البعيد.

وقد أكَّد العارفون بالمسجد الأقصى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، كذلك أكَّدت القافلة كلامه عندما قدمت في الموعد الذي حدَّده، وبالوصف الذي وصفه. لقد كان الأمر في غاية الوضوح لكل عاقل؛ ومع ذلك فقد انقسم الناس تجاه هذه المعجزة الظاهرة إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) المستدرك (٣/ ٦٥ح ٤٤٠٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (٥/ ٥٤ح ٣٨٨٨).

أما القسم الأول: فهو قسم الكفار؛ الذين ازدادوا كفرًا بعد رؤية الآيات الباهرات، فزادت المعجزة الجديدة من حقدهم وحسدهم، فقلبوا الأوضاع دون حياء؛ فاستخدموا الآية العظيمة في تنفير الناس وإبعادهم عن دين الله، وكان على رأس هؤلاء أبو جهل؛ الذي حرص على جمع الناس ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان بحقٍّ فرعون هذه الأُمَّة، وفعل كما فعل فرعون عندما جمع الناس ليروا معجزة العصا واليد لموسى عليه السلام؛ ظنًّا منه أن هناك فرصة للانتصار على الإيمان، وعندما ظهرت المعجزة كذَّب وعصى! هكذا فعل أبو جهل تمامًا! لم يكتفِ بالتكذيب؛ إنما جمع الناس، وسار بينهم يُشَوِّش على المعجزة الظاهرة؛ بل أخذ يسخر في سطحية بالغة لا تتناسب مع مكانته كزعيم لمكة؛ ولكن هكذا عندما يُحارِب الكبراءُ دينَ الله يأبى الله إلا أن يُظهرهم في هذا المظهر التافه! كان هذا هو القسم الأول من أهل مكة.

أما القسم الثاني: فهم قلَّة؛ ولكنها قلَّة مؤسفة! إنها مجموعة من المسلمين الذين لم يستوعبوا المعجزة، فارتدوا بعد إيمانهم كفارًا؛ قال تعال:" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ" [آل عمران ٩٠]، ويبدو أن هؤلاء كانوا حديثي الإسلام، أو أنهم اعتنقوا الدين قناعةً بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، أو انبهارًا بشيء معين رأوه في الإسلام أو الصحابة؛ ولكنهم لم يؤمنوا على وجه الحقيقة بقدرة الله تعالى وقوته، وإلا فإن هذه الرحلة ما هي إلا آية من آيات العزيز القدير، ولو قدروا لله قَدْره ما تركوا الإسلام قط؛ بل والله لازدادوا له تقديرًا وحبًّا؛ قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧]. والذي يدعونا

إلى افتراض أنهم قلَّة، وأنهم من حديثي الإسلام، أننا لا نعرف أسماء أحدٍ منهم، ولو كانوا من القدامى لاشتهروا وعُرِفوا، ولو كانوا كثرة لأحدثوا هزَّة في مكة، وهذا لم يحدث، كما أن الكفار لم يذكروا أمرهم، ولم يُعَيِّروا المسلمين بهم، وهذا كله يُثبت أن قصتهم كانت قصة عابرة غير مؤثِّرة في مسار الدعوة.

وأما القسم الثالث والأخير: فهو قسم المؤمنين الذين ازدادوا إيمانًا برؤية هذه المعجزة الباهرة، وكان على رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بموقفه الشهير، الذي عَبَّر فيه عن حقيقة الأمر عند المؤمنين. إن بيت القصيد في فهم الإسلام هو أن تؤمن بوحدانية الله وقدرته وعظمته وحكمته وكل صفاته، وكذلك أن تؤمن بالرسول العظيم صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله ليُقيم حجَّته سبحانه على خلقه؛ عن طريق المعجزات والآيات التي لا تقبل شكًّا ولا ريبًا، ويدعوهم إلى الإيمان به سبحانه وتوحيده، ويُعَلِّمهم كيف يعبدونه ويُقَدِّسونه؛ هذه هي الحقيقة المجرَّدة، فمن لم يؤمن ابتداءً بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم لن يقبل بالتبعية تشريعات الإسلام وقوانينه؛ ومن هنا كان مفتاح الدخول إلى هذا الدين هو قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله . هذا القسم من أهل مكة ازداد قناعة بهذا الدين العظيم، الذي كثرت الأدلَّة على صدقه وحقيقته، وازدادوا حبًّا لرسوله المكرَّم صلى الله عليه وسلم بعد أن عرفوا مكانته عند ربِّ العالمين، كما ازدادوا إيمانًا بالغيب بعد أن رآه الرسول الـمُصَدَّق صلى الله عليه وسلم، وكذلك ازدادوا اشتياقًا إلى الجنة بعد أن حكى لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها.

إن رحلة الإسراء والمعراج كانت كما لخَّصها الله تعالى في كلمات معدودات !قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [الإسراء: ٦٠]. كان الأمر إذن فتنةً واختبارًا، فمِن الناس مَنْ نجح وسبق، ومنهم مَنْ فشل وانتكس [١].

الدروس المستفادة من معجزة الإسراء والمعراج

إن معجزة الإسراء والمعراج من المعجزات العظيمة التى أكرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم، وأعلى بها شأنه، وكانت تخفيفاً لألم رسول الله وحزنه وما لاقاه من قومه من إعراض وأذي.

وليس هناك تاريخ ثابت يحدد زمن حادثة الإسراء، بل إن العلماء اختلفوا اختلافا كبيرا فى يوم الإسراء، بل فى شهر الإسراء، بل فى سنة الإسراء. وإن حادثة الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس لتؤكد هوية القدس الإسلامية، وتوجب على الأمة إخراج اليهود منه. وستظل معجزة الإسراء والمعراج نبراسا يستلهم منه العلماء الدروس والعبر التى تفيد الناس فى حياتهم وتصلح بها دنياهم.

وسوف نستعرض الآن بعض الدروس والعبر التي نرجو أن ننتفع بها في حياتنا:

أولاً: تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته

لعلَّ هذا هو أبرز المعاني في هذه الرحلة الخالدة؛ فالرحلة من أولها إلى آخرها عبارة عن فقرات تكريمية لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت بذلك احتفالية غير مسبوقة لا يمكن مقارنتها بأي تكريم آخر على مرِّ التاريخ.

---

(١) موقف أهل مكة من الإسراء والمعراج د راغب السرجاني https://www.islamstory.com/ar/artical/٣٢٥.

لقد جاءت الدعوة من مَلِك السموات والأرض سبحانه إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لمقابلته في الملكوت الأعلى، وشاء الله عز وجل أن يُعَدِّد الفقرات لرسوله صلى الله عليه وسلم وذلك لزيادة التكريم والتشريف، وكذلك للتمهيد للموقف العظيم، عندما يقف الرسول صلى الله عليه وسلم في حضرة ربِّ العالمين، فكانت زيارة المسجد الأقصى، وكان العروج إلى السموات، وكانت مقابلة الأنبياء، وكانت زيارة سدرة المنتهى، ورؤية البيت المعمور، ورؤية جبريل عليه السلام في صورته الملائكية، ثم كان دخول الجنة بعد لقاء الله تعالى.. هذه كلها فقرات تكريمية خالدة؛ بل إن الغوص في التفاصيل لن يحمل إلا تكريمًا أعظم، وتشريفًا أجلَّ، فكل موقف في السموات، وكل كلمة صدرت من الأنبياء في لقائهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل مشهد في الجنة، كل هذا لا يعني -في حقيقته- إلا صورة متجدِّدة من التكريم والتشريف.

وإني لألمح فوق ذلك تكريمًا لبعض الأنبياء كذلك في هذه الرحلة؛ فالأنبياء عددهم هائل، ولا يقف عددهم كما يتخيل البعض عند الأسماء التي ذُكِرَت في القرآن الكريم؛ فقد قال الله تعالى:" وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ" [النساء: ١٦٤]. وعندما سأل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن عدد الأنبياء والمرسلين قال: "مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلاَثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا" [1] فَمِنْ كل هذا العدد الكبير اختار الله تعالى عددًا محدودًا ليكون في شرف استقبال النبي الـمُكَرَّم صلى الله عليه وسلم، ثم أكرمهم

(١) مسند أحمد (٣٦/ ٦١٨ح ٢٢٢٨٨).

جميعًا بالصلاة خلفه في المسجد الأقصى، فكانت صلاةً رائعة جمعت أتقى البشر، وأعظم الموحدين، وأفضل مَنْ عرفوا الله تعالى.

والحقُّ أنني أجد فوق ذلك تكريمًا للأُمَّة الإسلامية التي جعل اللهُ سبحانه قيادتها لهذا النبي العظيم، الذي هو في حقيقته مِنَّة من الله وفضل؛ قال تعالى:" لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ" [آل عمران: ١٦٤].

ثانيًا: تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتسرية عنه:

كان العام العاشر من البعثة من أَشَقِّ الأعوام على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد ماتت فيه زوجته القريبة إلى قلبه خديجة رضي الله عنها، التي لم تكن مجرَّد زوجة؛ إنما كانت صديقة وحبيبة وناصحة ومستشارة؛ ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بموتها الشيء الكثير، وحمل بعدها وحده مسئولية البنات التي تركتهن خديجة رضي الله عنها وراءها، إضافة إلى حِمْل الدعوة الثقيل، ومات كذلك أبو طالب عمُّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وحزن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرًا لموته، ليس لفقدان الدعم السياسي والاجتماعي فقط؛ ولكن لكونه مات كافرًا؛ بل نهى اللهُ تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له؛ قال تعالى: " مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" [التوبة: ١١٣]، فكان ألمه صلى الله عليه وسلم لذلك كبيرًا، وتعرَّض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لآلام شديدة في مكة عندما تطاول أهلها عليه بعد وفاة عمِّه؛ مما وصل به إلى الدعاء عليهم للمرَّة الأولى في حياته؛ وذلك كما مرَّ بنا في موقف الكعبة، ثم تفاقم الألم أكثر بعد رحلة الطائف المفجعة، حيث تعرَّض الرسول صلى الله

عليه وسلم وصاحبه زيد بن حارثة رضي الله عنه للأذى المعنوي والجسدي، وعاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة مهمومًا باكيًا ليدخلها في إجارة مشرك ليس من قبيلته؛ هو المطعم بن عدي من بني نوفل؛ وذلك بعد أن تخلَّت عنه عائلته الشريفة بنو هاشم.

في وسط كل هذه الآلام والأحزان، وبعد أحداث جعلت المؤرخين يُطلقون تسمية "عام الحزن" على هذا العام الصعب، جاءت رحلة الإسراء والمعراج لتُخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من أحزانه تمامًا؛ بل لتُخرجه من الأرض بكاملها إلى السماء؛ بل من الدنيا بكل همومها إلى الآخرة بكل نعيمها؛ حقًّا ما أسعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة وبعدها، ولا شكَّ أن نظرته للمكذبين من أهل مكة والعرب له صارت أكثر شفقة عليهم، وأقلَّ غضبًا منهم؛ فقد رأى بعينه المصير التعيس الذي يُقبِلون عليه، ورأى النعيم المقيم الذي يضيع منهم، فصار همُّه كلُّه أن يستنقذهم من النار مهما تعرَّض للأذى منهم، وطابت نفسه الكريمة صلى الله عليه وسلم لكل ألم يُعانيه من أجل تحقيق الهداية لهم.

قد ترجم هو صلى الله عليه وسلم هذه الروح الرفيقة إلى كلمات من نور، فقال -كما روى أبو هريرة رضي الله عنه: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا" [1].

ثالثًا: تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، (٦١١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرُّهم، (٢٢٨٤).

ما أكثر ما سأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام في هذه الرحلة: ما هذا يا جبريل؟! كانت الرحلة وكأنها رحلة تعليمية مُشَوِّقة؛ تعلَّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير، ونقله إلينا كاملاً، فعرفنا في دقائق أو ساعات ما يعجز العلماء عن معرفته أبد الدهر!

لقد عرفنا أشياء عن السماء وأبوابها، وحُرَّاسها، وأهلها، وعرفنا صفة بعض الأنبياء، وعرفنا تفاصيل كثيرة عن السماء السابعة، وسدرة المنتهى، والبيت المعمور، وعرفنا تفاصيل عن الجنة والنار، والأكثر من ذلك أننا اطَّلعنا على كثير من الأمور العملية التي تُساهم في نجاحنا في اختبار الدنيا، والوصول إلى الجنة بسلام؛ عرفنا أن غراس الجنة هو التسبيح والحمد والتكبير والتهليل، وعرفنا قيمة الصلاة في حياتنا، وعرفنا سُنَّة ركعتي الوضوء في موقف بلال بن رباح رضي الله عنه، وعرفنا أهمية خواتيم سورة البقرة، وعرفنا من ماشطة ابنة فرعون معنى الثبات على الحقِّ، وعرفنا أهمية الحجامة وقدرها، وعرفنا آفات اللسان وكيف تُهْلِك المرء إذا وقع فيها، وعرفنا قيمة بعض الصحابة وقدرهم عند الله، ورأينا -كمثال لهم- مكانة عمر بن الخطاب وبلال والغميصاء أم سليم بنت ملحان رضي الله عنهم جميعًا، فتَعَلَّمنا أن نأخذهم قدوة في حياتنا.. لقد عرفنا هذا وغيره من العلم؛ مما جعل هذه الرحلة في مجملها كنزًا لا بُدَّ للمؤمنين والمؤمنات أن يعكفوا عليه.

رابعًا: ترسيخ عقيدة الإيمان بالغيب

إن الإيمان بالغيب ركن ركين من أركان الارتباط بهذا الدين وفهم أصوله، ولا معنى للإيمان أصلاً دون يقين في الغيب؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا

الإِيمَانُ؟ قَالَ:" الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ"(١).

فمعنى هذا الحديث أن كل أركان الإيمان "غيب" بالنسبة لنا؛ فإذا اهتزَّ الإيمان بالغيب اهتزَّ الدين من أساسه.

ولذلك كانت هذه أولى صفات المؤمنين المذكورة في القرآن الكريم في أول سورة البقرة؛ قال تعالى: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ١ - ٥]، فالإيمان بالغيب هو الذي سيقود العبد إلى إقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، والقيام بكل تكاليف الدين. وهنا يأتي الدور العظيم لرحلة الإسراء والمعراج!

لقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة نقلة نوعية من مرحلة الإيمان بالغيب دون أن نراه، إلى مرحلة رؤية الغيب ذاته؛ بل العيش فيه طوال مدَّة الرحلة! لقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضرة الله تعالى للحظات، واستمع إلى كلام الله له؛ بل تردَّد بينه صلى الله عليه وسلم وبين موسى عليه السلام عدَّة مرَّات، ورأى الملائكة في هذه الرحلة كذلك، وقابل الأنبياء السابقين، وعاش في الدار الآخرة للحظات! دخل الجنة، وتجوَّل في دروبها وأنحائها، واطَّلع على النار، ووصف سعيرها وحميمها!

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: إن الله عنده علم الساعة (٦/ ١١٥ح ٤٧٧٧).

إنه باختصار انتقل من مرحلة "علم اليقين"، إلى مرحلة "عين اليقين"؛ قال تعالى: {كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٥-٧]، إن هذا الانتقال سيحدث لنا جميعًا يوم القيامة؛ لكنه حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا، ونقله إلينا بحذافيره؛ فكأننا رأيناه بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقام الدليل على صدقه بما أخبر به من أدلَّة؛ خاصة برحلة الإسراء إلى بيت المقدس كما مرَّ بنا، وإذا ثبت لنا صدقه صلى الله عليه وسلم في أمر الإسراء فهو صادق في أمر المعراج، وبالتالي صادق في وصف الغيب الذي رآه، وبذلك حوَّلت رحلة الإسراء والمعراج إيماننا بعالم الغيب إلى إيمان بعالم الشهادة، وهو تطوُّر كبير يُرَسِّخ الإيمان في القلب، ويُزيل عنه الشكوك والريب.

خامسًا: تحقيق الاختبار للناس

من المؤكد أن التصديق بإمكانية حدوث رحلة الإسراء والمعراج يحتاج إلى إيمان عميق بالله عز وجل، وبرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم؛ فالرحلة من أولها إلى آخرها خارجة عن قانون البشر، وإمكاناتهم وقدراتهم، ومن ثم فقد بدأها الله تعالى بقوله:" سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" [الإسراء:١].

وكلمة "سبحان" لا تأتي غلا مع الأمور العجيبة الخارجة عن إدراك البشر.

لذلك فقد انقسم الناس حولها بين مصدق ومكذب؛ فقد أنكرها ضعاف الإيمان، فصارت الرحلة كاشفة عنهم، وفاضحة لهم.

قال الله تعالى:" وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ" [الإسراء: ٦٠]، وجاء سياق الآية بأسلوب القصر، وكأنه يُريد أن يقصر أهداف رحلة الإسراء والمعراج على هذا الهدف فقط لأهميته.

المبحث التاسع: بيعتا العقبة:

كان النّبي صلّى الله عليه وسلم، خلال هذه الفترة كلها، يعرض نفسه في موسم الحج من كل سنة على القبائل التي تتوافد إلى البيت الحرام، يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم إلى توحيد الله فلا يستجيب له أحد.

يقول ابن سعد في طبقاته:" كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوافي الموسم كل عام يتّبع الحجاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربّه ولهم الجنة، فلا يجد أحدا ينصره، ويقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذلّ لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة» ، وأبو لهب وراءه يقول:ل" لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب"، فيردون على رسول الله أقبح الرّد ويؤذونه"[1].

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة[2] لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا، فسألهم: «من أنتم؟».قالوا: نفر من الخزرج.

---

(١) الطبقات الكبرى(١/ ٢٠٠).

(٢) موضع بين منى ومكة ومنها ترمى جمرة العقبة.

قال: أمن موالي يهود؟

قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

وكان مما مهّد أفئدتهم لقبول الإسلام، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال، قال لهم اليهود: إن نبيّا مبعوث الآن قد أطلّ زمانه، سنتّبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!.

فلما كلّم الرسول هؤلاء النفر، ودعاهم إلى الإسلام، نظر بعضهم لبعض وقالوا:" تعلمون والله إنه للنّبي الذي توعّدكم به يهود، فلا يسبقنّكم إليه".

فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك. ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا[1].

وكانوا ستة نفر فيما ذكر ابن إسحاق- وهم: أسعد بن زرارة من بني النجار، وقال أبو نعيم: إنه أول من أسلم من الأنصار من الخزرج. وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني النجار، وهو ابن عفراء بنت عبيد النجارية، وهي أم معاذ، ومعوذ، وإليها ينسبون.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٨).

ورافع بن مالك بن العجلان الزرقي. وقطبة بن عامر من بني سلمة. وعقبة بن عامر بن نابي السلمي أيضا، ثم من حرام. وجابر بن عبد الله بن رياب السلمي، ثم من بني عبيد.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، ولم تبق دار من دور الأنصار حتى كان فيها ذكر لرسول الله والإسلام [1].

بيعة العقبة الأولى

بعد عامٍ من هذه المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة وبايعوه بيعة العقبة الأولى، وكان منهم خمسة من الستة الذين أسلموا أولا، وهم:

(١) أسعد بن زرارة. (٢) وعوف بن عفراء. (٣) ورافع بن مالك.

(٤) وقطبة بن عامر السلمي. (٥) وعقبة بن عامر بن نابي.

والسبعة الباقون هم: (٦) معاذ بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور. (٧) وذكوان بن عبد قيس البدري الزرقي. (٨) وعبادة بن الصامت بن قيس. (٩) وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة.

(١٠) والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان وهؤلاء العشرة من الخزرج. (١١) وأبو الهيثم مالك بن التّيّهان من بني عبد الأشهل.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٩).

(١٢) وعويم بن ساعدة- وهما أوسيان- فلما عادوا إلى المدينة أظهروا الإسلام ودعوا إليه [١].

وقد بايع هؤلاء القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، وفي المنشط والمكره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق، وأن لا يخافوا في الله لومة لائم، وعلى الولاء والنصرة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قدم عليهم المدينة، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم، وأولادهم.

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال:" بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لاَ نَخَافُ فِي اللهِّ لَوْمَةَ لاَئِمٍ" [٢].

وعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ:" بَايَعْنَا رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمُكْرَهِ وَالْمَنْشَطِ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْأَثَرَةِ عَلَيْنَا، وَأَنْ نُقِيمَ أَلْسِنَتُنَا بِالْعَدْلِ أَيْنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي الله لَوْمَةَ لَائِمٍ " قَالَ عَفَّانُ: أَلْسُنَنَا" [٣].

لما انصرف القوم من الأوس والخزرج إلى المدينة كتبوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن ابعث إلينا من يقرئنا القران، وقد صادف هذا هوى من نفس النبي صلّى الله عليه وسلّم، فأرسل إليهم الصحابي الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القران، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وأن يؤمهم في الصلاة، وذلك أن الأوس والخزرج كره كل منهم أن يؤمه

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٣٥).

(٢) صحيح البخاري، باب كيف يبايع الإمام الناس (٩/ ٧٧ح ٧١٩٩) .

(٣) مسند أحمد (٣٧/ ٣٨٩ح ٢٢٧١٦).

الاخر، وكان يسمى بالمدينة «المقرىء» و «القارىء» ، وكان نزوله بالمدينة على السيد الصحابي الجليل السابق إلى الخير سيد الخزرج، ونقيب بني النجار أسعد بن زرارة بن عدس بن أبي أمامة.

وقد نجح داعية الإسلام بالمدينة في إسلام الكثيرين من أهلها، ومن أجلّهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وبإسلامهما أسلم الكثيرون من بني عبد الأشهل وغيرهم[1].

قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما.

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدَي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أُسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتمًا فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره؟

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام -قبل أن يتكلم- في

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٤١).

إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك.

فقام سعد مغضبًا مبادرًا مخوفًا للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين فعرف أن أسيد إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره، وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله سيد من ورائه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أَوَتقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا –والله– في وجهه الإسلام –قبل أن يتكلم– في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلمًا أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصلِّ لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة [١].

وقد روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن أبي هريرة أنه كان يقول: «حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس قال هو أصيرم بني عبد الأشهل" [٢].

عوامل انتشار الإسلام في المدينة.

كانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة منها:

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٥).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ١٥٦).

١- ما طبع الله عليه قبائل الخزرج والأوس من الرقة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد وفد من اليمن بقوله: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدةً وألين قلوباً» وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم فيقول القرآن الكريم مادحًا لهم: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: ٩].

٢- ومنها التشاحن والتطاحن الموجودان في قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بُعاث وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرها حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبقَ إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعاث يومًا قدمه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، فقدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجُرِّحوا فقدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم الإسلام».

٣- ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علمٍ -ولو يسيرٍ- بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم في مجتمعهم يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب وإنما غاية أمرها أن تسمع أخبارًا متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي دون أن تلح عليها هذه المسألة أو تشغل

تفكيرها باستمرار، وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قد أظل زمانه ويزعمون أنهم سيتعبونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم، مع أن الأوس والخزرج كانوا أكثر من اليهود، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز قال تعالى:" وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ" [البقرة: ٨٩] (١).

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من النبوة حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب، جاؤوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم اتصالات سرية، أدت إلى إتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الإجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

عن كَعْب بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بِهَا قال:" خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ المدينة قَالَ الْبَرَاءُ لَنَا: يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَالله رَأْيًا وَإِنِّي وَالله مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا. قَالَ: قُلْنَا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لَا أَدَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ مِنِّي بِظَهْرٍ يَعْنِي الكعبة وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا. قَالَ: فَقُلْنَا: وَاللهَّ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشام وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ. فَقَالَ: إِنِّي

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص٣٨٩).

أُصَلِّي إِلَيْهَا. قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: لَكِنَّا لَا نَفْعَلُ. فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ، قَالَ أَخِي: وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ وَأَبَى إِلَّا الإِقَامَةَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَإِنَّهُ وَالله قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلَافِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ. قَالَ: فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفَانِهِ؟ قَالَ قُلْنَا: لَا. قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفَانِ العباس بن عبد المطلب عَمَّهُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ الْعَبَّاسَ كَانَ لَا يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا. قَالَ: فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ. قَالَ: فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَعَهُ جَالِسٌ، فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لِلْعَبَّاسِ» :هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟ « قَالَ: نَعَمْ هَذَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ. قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم» :الشَّاعِرُ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ: يَا نَبِيَّ الله إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا وَهَدَانِي اللهُ لِلإِسْلَامِ، فَرَأَيْتُ أَنْ لَا أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ» :لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا .« قَالَ: فَرَجَعَ الْبَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ، قَالَ: وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ، قَالَ: وَخَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ فَوَاعَدْنَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدْنَا رَسُولَ الله صلى الله

عليه وسلم وَمَعَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا. ثمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا، قَالَ: فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ القطا، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ، نسيبة بنت كعب أم عمارة إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ، قَالَ: فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ" (١).

العباس يستوثق لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. تكلم ليشرح لهم- بكل صراحة- خطورة المسؤولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف فَقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ- قَالَ كعب: وَكَانَتْ الْعَرَبُ إِنَّمَا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ الْأَنْصَارِ: الْخَزْرَجَ، خَزْرَجَهَا وَأَوْسَهَا-: إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ

(١) مسند أحمد (٢٥/ ٨٩ح ١٥٧٩٨).

أَبَى إِلَّا الِانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنْ الْآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْت، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتُ[1].

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه وقال:" تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي الله لَا تَخَافُونَ فِي الله لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّة ، فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِّ، فَنَحْنُ وَاللهِّ أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ[2].

أبو الهيثم ابن التيهان يستوثق للأنصار من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبينما كان البراء بن معرور يتكلم اعترض القول أبو الهيثم بن التيهان ليستوثق لقومه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من بقاء الحلف بعد ظهور دين الله تعالى.

يقول كعب بن مالك:" فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أَبُو الْهَيْثَمِّ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا وَإِنَّا قَاطِعُوهَا -يَعْنِي الْعُهُودَ- فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٢).

(٢) مسند أحمد (٢٢/ ٣٤٦ح ١٤٤٥٤) بإسناد صحيح.

أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قَالَ» :بَلِ الدَّمَ الدَّمَ وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ" (١).

التأكيد على خطورة البيعة

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في المواسمين السابقين، قام أحدهما تلو الآخر، ليؤكدا للقوم خطورة المسؤولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكدا من ذلك.

ففي حديث جابر:" فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ عز وجل، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ. قَالُوا: يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الجَنَّةَ" (٢).

---

(١) مسند أحمد (٢٥/ ٨٩-٩٣ح ١٥٧٩٨) بإسناد صحيح.

(٢) مسند أحمد (٢٣/ ٢٢ح ١٤٦٥٣)، سنن البيهقي الكبرى (كتاب السير، باب الأذن بالهجرة (٩/ ١٦ح ١٧٧٣٥). وقال الصوياني: إسناده صحيح. انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٤٤).

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عاصم بن عمر بن قتادة أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا اجْتَمَعُوا لِبَيْعَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِيُّ، أَخُو بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلًا أَسْلَمْتُمُوهُ فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَالله -إِنْ فَعَلْتُمْ- خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَةِ الأَمْوَالِ وَقَتْلِ الأَشْرَافِ فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَالله خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأَمْوَالِ وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ الله إِنْ نَحْنُ وَفَّيْنَا؟ قَالَ» :الْجَنَّةُ .«قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ. فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ. وَأَمَّا عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ فَقَالَ: وَالله مَا قَالَ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ إِلَّا لِيَشُدَّ الْعَقْدَ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فِي أَعْنَاقِهِمْ. وَأَمَّا عبد الله بن أبي بكر فَقَالَ: مَا قَالَ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ إِلَّا لِيُؤَخِّرَ الْقَوْمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ رَجَاءَ أَنْ يَحْضُرَهَا عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ فَيَكُونَ أَقْوَى لأَمْرِ الْقَوْمِ. فَالله أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ"[1].

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر- بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة-: فَقَالُوا: يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَالله لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا[2].

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل، وتأكد منه- وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير، وبالطبع فكان هو الرئيس الديني على

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٦)، تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٣٦٣)، المنتظم (٣/ ٣٦).

(٢) مسند أحمد (٢٣/ ٢٤ح ١٤٦٥٤)، المستدرك على الصحيحين (٢/ ٦١٨ح ٤٢٥١)، وقال الحاكم:" هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ جَامِعٌ لِبَيْعَةِ الْعَقَبَةِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

هؤلاء المبايعين- فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده[١].

وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر:" فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ"[٢].

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولا. ما صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أجنبية قط [٣].

قريش تعلم بخبر البيعة وتعترض على الأنصار

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان، لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب، ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة [٤].

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، ثمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ، فَلَمَّا بَايَعَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الجباجب- وَالْجُبَاجِبُ الْمَنَازِلُ- هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ. -قَالَ عَلِيّ يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ: مَا يَقُولُهُ عَدُوُّ الله مُحَمَّدٌ- فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٧).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٦١٨ح ٤٢٥١)، وقال:" هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ جَامِعٌ لِبَيْعَةِ الْعَقَبَةِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء (٢/ ١٣١).

(٤) الرحيق المختوم (ص ١٣٨).

»هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ الله أَمَا وَاللهِ لأَفْرُغَنَّ لَكَ .«ثمَّ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم» :ارْفَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ .«قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم» :لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ .«قَالَ: فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الخزرج إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَاللهِ إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ. قَالَ: فَانْبَعَثَ مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِالله مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَاهُ، وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا. قَالَ: فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ"[1].

دروس من بيعة العقبة

١- الحفاظ على السرية

تَبَيَّن لنا من خلال الروايات أنَّ المسلمين في الوفد لم يكونوا معروفين لبقيَّة الوفد اليثربي؛ وذلك مع أنَّهم لم يكونوا بالعدد القليل؛ إذ إنَّهم يُمَثِّلون سُبع الوفد تقريبًا؛ حيث جاء في بعض الروايات أنَّ الوفد كان مكونًا من خمسمائة حاجٍّ[2].

٢- طلب التضحية في سبيل نصرة هذا الدين

لقد سعى هذا الوفد المسلم عن فرصة تمكنهم من خدمة هذا الدين، ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك قبل خروجهم من يثرب إلى مكة؛ إن ذلك يبدوا

(١) مسند أحمد (٢٥/ ٨٩ح ١٥٧٩٨).

(٢) الطبقات الكبرى (١/ ١٧١)، سبل الهدى والرشاد (٣/ ٢٠١).

واضحا في قول جابر رضي الله عنه:" فقلنا: «حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رجلًا" (١).

٣- شهود العباس عم النبي لهذه البيعة علي الرغم من كونه علي دين قومه لكنه أحب أن يحضر هذه البيعة ويتوثق من صدق أهل يثرب وهذا دليل علي أن النبي لم يفقد روابط النسب والعشيرة لحسن خلقه وتعهده لقومه وعشيرته بالرعاية.

٤ - دلت البيعة علي النصرة التامة لله ولرسوله وبذل الأرواح والدماء وكل غال ونفيس في سبيل الله تعالي وهذا هو الإسلام.

٥- رد رسول الله وفاء أهل يثرب بوفاء وإحسانهم بإحسان أعظم منه فإن ظهر دينه وانتصر فإن المحيا محياهم والممات مماتهم فلن يرجع إلي مكة ويدعهم وحدهم ، وقد شرفت المدينة المنورة بأنوار النبي وصارت حرما مقدسا إلي يوم القيامة.

٦ – ترتب علي نجاح وإتمام البيعة الثانية خروج طلائع المهاجرين إلي المدينة والعمل علي تأسيس الدولة الإسلامية.

٧– علي الداعية ألا يكسل أو يتباطأ في نشر دعوته ويجب أن تملأ الدعوة علي الداعية جميع وقته.

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ١٧٢ح ٦٢٧٤).

المبحث العاشر: الهجرة إلى المدينة

إذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة:

ولمّا بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحيّ من الأنصار على الإسلام، والنصرة له، ولمن اتبعه، فأوى إليهم عدد من المسلمين، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال:" إنّ الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها" فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر الإذن من الله في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة [١].

أساليب قريش في محاربة المهاجرين

ولم تكن هجرة المسلمين من مكة هيّنة سهلة تسمع بها قريش، وتطيب بها نفسا، بل كانوا يضعون العراقيل في سبيل الانتقال من مكة إلى المدينة، ويمتحنون المهاجرين بأنواع من المحن، وكان المهاجرون لا يعدلون عن هذه الفكرة، ولا يؤثرون البقاء في مكّة، مهما دفعوا من قيمة، فمنهم من كان يضطرّ إلى أن يترك امرأته وابنه في مكّة، ويسافر وحده، كما فعل أبو سلمة، ومنهم من كان يضطرّ إلى أن يتنازل عن كلّ ما كسبه في حياته وجمعه من ماله، كما فعل صهيب رضي الله عنه [٢].

وقد سلكت قريش في حربها ضد المهاجرين عدة أساليب منها:

١ – التفريق بين أفراد الأسرة الواحدة.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٨).

(٢) السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي (ص٢٣٣)..

وهذا من أشد الأساليب وأقساها، وكان أول من تعرض لهذا النوع من الاضطهاد؛ السيدة أم سلمة بنت أبي أمية وزوجها وولدها.

روى ابن إسحاق بسنده عن أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ:" لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بَعِيرَهُ ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ؟ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاللهِّ، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا.

قَالَتْ: فَتَجَاذَبُوا بَنِي سَلِمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَانْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي. قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي، حَتَّى أَمْسَى سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي، أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ، فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكَ إِنْ شِئْتِ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي. قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِّ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيَّ زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَ:

أَوَمَا مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاَللهِ، إِلَّا اللهُ وَبُنَيَّ هَذَا. قَالَ: وَاَللهِ مَا لَكَ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوى بي، فو الله مَا صَحِبْتُ رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ قَطُّ، أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي، فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِّي إِلَى شَجَرَةٍ، فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ، قَامَ إِلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي. فَإِذَا رَكِبْتُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، فَقَادَهُ، حَتَّى يَنْزِلَ بِي. فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بقُباءٍ، قَالَ: زَوْجُكَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ- وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلًا- فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ.

قَالَ: فَكَانَتْ تَقُولُ: وَاَللهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ [1].

٢- الاختطاف.

لم تكتف قريش بمنع المسلمين في مكة من الهجرة إلى المدينة؛ بل تعدت ذلك بعمليات اختطاف للمسلمين الذين هاجروا إلى المدينة وإعادتهم إلى مكة مرة أخرى.

وقد نجحت قريش في إعادة عياش بن أبي ربعة إلى مكة بعدما هاجر إلى المدينة واستقر به المقام في بني عمرو بن عوف.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:" اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التناضب من أضاة بني

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٦٩).

غفار، فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فكلماه، وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك فرق لها فقلت له: عيّاش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال: أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخ، ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم:" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ ۞ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ " [الزمر: ٥٣-٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أُصَعَّد بها فيه وأصَوَّبُ ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة [١].

٣- الحبس والإخفاء.

لجأت قريش إلى الحبس كأسلوب لمنع الهجرة فكل من تقبض عليه وهو يحاول الهجرة، كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت، مع وضع يديه ورجليه في القيد، وتفرض عليه رقابة وحراسة مشددة، حتى لا يتمكن من الهرب، وأحيانًا يكون الحبس داخل حائط بدون سقف، كما فعل مع عياش وهشام بن العاص، رضي الله عنهما، حيث كانا محبوسين في بيت لا سقف له، وذلك زيادة في التعذيب، إذ يضاف إلى وحشة الحبس حرارة الشمس وسط بيئة جبلية شديدة الحرارة مثل مكة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين: أولهما منع المحبوسين من الهجرة، والآخر أن يكون هذا الحبس درساً وعظة لكل من يحاول الهجرة من أولئك الذين يفكرون فيها ممن بقي من المسلمين بمكة، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى

(١)سيرة ابن هشام (١/ ٤٧٤).

المدينة المنورة، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكة مثل عياش، وهشام رضي الله عنهما، ولكنهم تمكنوا من الخروج واستقروا بالمدينة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته يقنت ويدعو للمستضعفين في مكة عامة، ولبعضهم بأسمائهم خاصة، فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف».

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عياش، فقد ندب الرسول صلى الله عليه وسلم أحد أصابه وفعلاً استعد للمهمة ورتب لها ما يحقق نجاحها، وجاء إلى مكة واستطاع بكل اقتدار وذكاء أن يصل إلى البيت الذي حُبسا فيه وأطلق سراحهما، ورجع بهما إلى المدينة المنورة.

٤- مصادرة الأموال والممتلكات.

لقد تعددت صنوف وأساليب الأذى التي سلكها أهل مكة لصرف المسلمين عن دينهم ومنعهم من الهجرة، وكان الاستيلاء على الأموال والممتلكات من بين هذه الأساليب؛ حتى أن قريشا كانت تساوم من يرغب في الهجرة بالتنازل عن ماله وممتلكاته.

عن أبي عثمان النهدي رحمه الله قال:" بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكة: أتيتنا هاهنا صعلوكا حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك، فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

«ربح صهيب، ربح صهيب» وعن عكرمة رحمه الله قال:«لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة، فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا، فقال: لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة فينتين فهما لكم. وقال عكرمة: ونزلت على النبي صلى الله عليه وسلم:" وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ " [البقرة: ٢٠٧] فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أبا يحيى، ربح البيع" قال: وتلا عليه الآية [(١)].

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

أقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق -رضي الله عنهما- وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الهجرة، فيقول له رسول الله -صلى الله عليه وسلم: " على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر: «وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده، وأخذ يتعهدهما بالرعاية أربعة أشهر [(٢)].

قريش تتشاور في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتقرر اغتياله

---

(١) عيون الأثر (١/ ٢٠٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم (٣/ ٩٨)، سيرة ابن هشام (٢/ ٨٩).

وفي هذه الأثناء رأت قريش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، فحذروا خروج رسول الله صلّى الله عليه وسلم إليهم وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم.

فاجتمعوا له في دار الندوة (وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها) يتشاورون فيما يصنعون بأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فاجتمع رأيهم أخيرا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا، ثم يعطى كل منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، كي لا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعا، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلّى الله عليه وسلم يأمره بالهجرة، وينهاه أن ينام في مضجعه تلك الليلة [١].

علي بن أبي طالب ينام في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه؟ فلما رأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينام في برده ذلك إذا نام[٢].

خروج الرسول وعدم شعور المشركين به

وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أولئك المتربصين به؛ فأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: {يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩١).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٩١)..

المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم} إلى قوله: {فأغشيناهم فهم لا يبصرون} [يس: ٩] حتى فرغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب[١].

الترتيب النبوي للهجرة

عن عائشة أم المؤمنين قالت: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ - بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ - إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِالثَّمَنِ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩١).

رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيَا خِرِّيتًا، وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ [١].

خروج الرسول صلى الله عليه وسلم ووصوله إلى الغار

لم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر.

أما علي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمكة أحدٌ عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته وكان الميعاد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال [٢].

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقوله الناس عنهما في بياض النهار، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون معه من الأخبار. وأمر عامر بن فهيرة (مولاه) أن يرعى

(١) صحيح البخاري باب هجرة النبي صلى الله يعليه وسلم (٥/ ٥٨ح ٣٩٠٥).

(٢) امتاع الأسماع (٩/ ١٨٩).

غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى، إلى الغار (غار ثور) ليطعما من ألبانها، وأمر أسماء بنته أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما في كل مساء [١].

وانطلق رسول الله وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور ليقيما فيه، وكان ذلك على الراجح في اليوم الثاني من ربيع الأول بعد أن مضى ثلاث عشرة سنة من البعثة، فدخل أبو بكر قبل الرسول صلّى الله عليه وسلم فلمس الغار، لينظر أفيه سبع أو حية، يقي رسول الله صلّى الله عليه وسلم بنفسه، فأقاما فيه ثلاثة أيام، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر يخبرهما بأخبار مكة، ثم يدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من الغنم، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر أثره بالغنم كي لا يظهر لقدميه أثر.

وروى الإمام أحمد عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أسماء بنت أبي بكر قالت:" لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ مَعَهُ: خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، أَوْ سِتَّةَ آلَافِ دِرْهَمٍ قَالَتْ:" وَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ ". قَالَتْ: " فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ، قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا يَا أَبَهْ، إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا قَالَتْ:" فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا، فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةِ الْبَيْتِ، كَانَ أَبِي يَضَعُ فِيهَا مَالَهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَهْ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ ". قَالَتْ: " فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ، إِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا، فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا لَكُمْ بَلَاغٌ قَالَتْ:" وَلَا وَاللهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا، وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ" [٢].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب المهاجرين، باب هجرة النبي صلى الله يعليه وسلم (٥/ ٥٨ح ٣٩٠٥).

(٢) مسند أحمد (٤٤/ ٥٢٠ح ٢٦٩٥٧).

قريش على باب الغار

ولما تبينت قريش إفلات النبي منهم جنّ جنونهم، وصاروا يهيمون على وجوههم طلبا له، وجعلوا لمن يأتي به حيا أو ميتا مائة ناقة، وبعثوا القافة في إثره في كل وجه، منهم: كرز بن علقمة، وسراقة بن جعشم، فصاروا يتبعون الأثر حتى انتهوا إلى جبل (ثور) ، ثم صعدوا الجبل حتى وصلوا إلى الغار، وسمع الرسول وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبي صلّى الله عليه وسلم: «لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا» . فأجابه عليه الصلاة والسلام: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1].

وفي هذا نزل قول الله تبارك وتعالى:" إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة: ٤٠].

فأعمى الله أعينهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أيسوا رجعوا، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار ثلاث ليال[2].

خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من الغار

وبعد أن انقطع الطلب ويئست قريس من إدراكهما، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من الغار، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبد الله بن أريقط – كما ذكرنا سابقا- وكان مشركًا، وقد

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب المهاجرين، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٥/ ٤ح ٣٦٥٣).

(٢) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان (١/ ١٢٩).

أمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلا في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش، فأمعن إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متّجها إلى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر. فلما كانا في غير الطريق الذي ألف الناس اتجه بهما شمالا محاذيا الشاطئ مع الابتعاد عنه، متّخذا من السبل ما قلّ أن يطرقه أحد، وأمضى الرجلان ودليلهما طيلة الليل وصدر النهار على رواحلهم، لا يعبان بمشقة ولا يضنيهما تعب[1].

قصة السيدة أم معبد

وفي الطريق إلى المدينة مر النبي صلى الله عليه وسلم بأم معبد في قديد حيث مساكن خزاعة، وهي أخت خنيس بن خالد الخزاعي الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وصححها الحاكم في المستدرك، فعن هِشَامِ بْنِ حُبَيْشِ بْنِ خُوَيْلِدٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَمَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَدَلِيلُهُمَا اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ مَرُّوا عَلَى خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيَّةِ، وَكَانَتِ امْرَأَةً بَرْزَةً جَلْدَةً تَحْتَبِي بِفِنَاءِ الْخَيْمَةِ، ثُمَّ تَسْقِي وَتُطْعِمُ، فَسَأَلُوهَا لَحْمًا وَتَمْرًا لِيَشْتَرُوا مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقَوْمُ مُرْمِلِينَ مُسْنِتِينَ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ الْخَيْمَةِ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ؟» قَالَتْ: شَاةٌ خَلَّفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ، قَالَ: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟» قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلُبَهَا؟» قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلَبًا فَاحْلُبْهَا، فَدَعَا بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا، وَسَمَّى اللهُ تَعَالَى، وَدَعَا لَهَا فِي

(١) الرحيق المختوم (ص ١٤٣).

شَاتِهَا، فَتَفَاجَّتْ عَلَيْهِ وَدَرَّتْ، فَاجْتَرَّتْ فَدَعَا بِإِنَاءٍ يَرْبِضُ الرَّهْطُ فَحَلَبَ فِيهِ ثَجًّا حَتَّى عَلَاهُ الْبَهَاءُ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوِيَتْ وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا وَشَرِبَ آخِرَهُمْ حَتَّى أَرَاضُوا، ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ الثَّانِيَةَ عَلَى هَدَّةٍ حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ، ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا، ثُمَّ بَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا، فَقَلَّ مَا لَبِثَتْ حَتَّى جَاءَهَا زَوْجُهَا أَبُو مَعْبَدٍ لِيَسُوقَ أَعْنُزًا عِجَافًا يَتَسَاوَكْنَ هُزَالًا مُخُّهُنَّ قَلِيلٌ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبَدٍ اللَّبَنَ أَعْجَبَهُ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبَدٍ وَالشَّاءُ عَازِبٌ حَائِلٌ، وَلَا حلوبَ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللهِ إِلَّا أَنَّهُ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: صِفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، قَالَتْ: رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ، وَلَمْ تُزْرِيهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعِجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُّ أَقْرَنُ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ فَصْلًا، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ، يَتَحَدَّرْنَ رَبْعَةٌ لَا تَشْنَأَهُ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا وَأَحْسَنُهُمْ، قَدْرًا لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إِنْ قَالَ: سَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ، قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ: هَذَا وَاللهِ صَاحِبُ قُرَيْشٍ الَّذِي ذُكِرَ لَنَا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذُكِرَ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا" (١).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٠ح ٤٢٧٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ويستدل على صحته وصدق رواته بدلائل، فمنها نزول المصطفى صلى الله عليه وسلم بالخيمتين متواترا في أخبار صحيحة ذوات عدد، ومنها أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظا بعد لفظ عن أبي معبد، وأم معبد، ومنها أن له

سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم

فشلت قريش في العثور على الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه ؛ بيد أنها لم يستسلم ولم تنفض يدها من هذا الأمر ولم تتراجع عن ملاحقته عليه الصلاة والسلام؛ وفي سبيل ذلك أعلنت في القبائل المنتشرة على طول الطريق بين مكة والمدينة أن من يأتيها بحمد صلى الله عليه وسلم حيا أو ميتا فله مائة ناقة.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيُّ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ، دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ، أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ، فَقَالَ يَا سُرَاقَةُ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ، أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا، انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي، وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ، فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ البَيْتِ، فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ، حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي، حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلاَمَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا: أَضُرُّهُمْ أَمْ لاَ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وَعَصَيْتُ الأَزْلاَمَ، تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ لاَ يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ،

أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه، والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة ومنها أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه، ووافقه الحافظ الذهبي.

سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلاَمِ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ، أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلاَنِي، إِلَّا أَنْ قَالَ: «أَخْفِ عَنَّا». فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

فَكَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا عَلَى نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ آخِرَ النَّهَارِ مَسْلَحَةً لَهُ.

وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ، فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ، وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الحَرَّةِ، فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ، لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ اليَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ العَرَبِ، هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلاَحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرِ الحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب المهاجرين، باب هجرة النبي صلى الله يعليه وسلم (٥/ ٦٠ح ٣٩٠٦).

عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ - مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأُسِّسَ المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ، وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ، لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُّ المَنْزِلُ (١).

وبعد أن قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم المدة التي شاء الله تعالى بقباء، وأراد أن يدخل المدينة «بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح».

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: «جاء نبي الله، جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله" (٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب المهاجرين، باب هجرة النبي صلى الله يعليه وسلم (٥/ ٦٠ح ٣٩٠٦).

(٢)صحيح البخاري، كتاب مناقب المهاجرين، باب هجرة النبي صلى الله يعليه وسلم (٥/ ٦٢ح ٣٩١١).

فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقًّا يوم عيد؛ لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقائع الأرض. لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضاً، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام كما أصبحت موطناً للنظام الإسلامي العام التفصيلي بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج، ويقولون: يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله [١].

روى الإمام مسلم بسنده أنه عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة: صَعِدَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَوْقَ الْبُيُوتِ، وَتَفَرَّقَ الْغِلْمَانُ وَالْخَدَمُ فِي الطُّرُقِ، يُنَادُونَ: يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ اللهِ يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ اللهِ" [٢].

وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم الذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانية سار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري فعن أنس رضي الله عنه في حديث الهجرة الطويل وفيه: جَاءَ نَبِيُّ اللهِّ، جَاءَ نَبِيُّ اللهِّ، فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ، فَإِنَّهُ لَيُحَدِّثُ أَهْلَهُ إِذْ سَمِعَ بِهِ عَبْدُ اللهِّ بْنُ سَلاَمٍ، وَهُوَ فِي نَخْلٍ لِأَهْلِهِ، يَخْتَرِفُ لَهُمْ، فَعَجِلَ أَنْ يَضَعَ الَّذِي يَخْتَرِفُ لَهُمْ فِيهَا، فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ، فَسَمِعَ مِنْ نَبِيِّ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«أَيُّ

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (١/ ٢٧٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة (٤/ ٢٣١٠ح٢٠٠٩).

بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ». فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: أَنَا يَا نَبِيَّ اللهِّ، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي، قَالَ:«فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلًا»، قَالَ: قُومَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِّ"[1].

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه.

وبهذا قد تمت هجرته صلى الله عليه وسلم وهجرة أصحابه رضي الله عنهم، ولم تنته الهجرة بأهدافها وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً إلى المدينة، وبدأ معها رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم للوصول للمستقبل الباهر للأمة، والدولة الإسلامية، التي استطاعت أن تصنع حضارة إنسانية رائعة، على أسس من الإيمان والتقوى، والإحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم[2].

دروس من الهجرة المباركة

١- من أبرز ما يظهر لنا من قصة هجرته عليه الصلاة والسلام، استبقاؤه لأبي بكر رضي الله عنه دون غيره من الصحابة كي يكون رفيقه في هذه الرحلة.

وقد استنبط العلماء من ذلك مدى محبة الرسول صلّى الله عليه وسلم لأبي بكر وأنه أقرب أصحابه إليه وأولاهم بالخلافة من بعده، ولقد عززت هذه الدلالة أمور كثيرة أخرى مثل استخلافه عليه الصلاة والسلام له في الصلاة بالناس عند مرضه وإصراره

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب المهاجرين، باب هجرة النبي صلى الله يعليه وسلم (٥/ ٦٢ح ٣٩١١).

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (١/ ٢٧٨).

على أن لا يصلي عنه غيره. ومثل قوله في الحديث الصحيح: «لو كنت متخذا خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا [١].

٢- قد يخطر في بال المسلم أن يقارن بين هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهجرة النبي عليه الصلاة والسلام، ويتساءل: لماذا هاجر عمر علانية متحديا المشركين دون أي خوف ووجل، على حين هاجر رسول الله مستخفيا محتاطا لنفسه؟ أيكون عمر بن الخطاب أشد جرأة من النبي عليه الصلاة والسلام؟! ..

والجواب: أن عمر بن الخطاب أو أي مسلم آخر غير رسول الله صلّى الله عليه وسلم، يعدّ تصرفه تصرفا شخصيا لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى.

أما رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فهو مشرّع، أي إن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعا لنا، ولذلك كانت سنته التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره. فلو أنه فعل كما فعل عمر، لحسب الناس أن هذا هو الواجب! .. وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر، والتخفي عند الخوف. مع أن الله عز وجل أقام شريعته في هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، وإن كان الواقع الذي لا شك فيه أن ذلك بتسبيب الله تعالى وإرادته.

لأجل ذلك، استعمل الرسول صلّى الله عليه وسلم كل الأساليب والوسائل المادية التي يهتدي إليها العقل البشري في مثل هذا العمل، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلا اعتدّ بها واستعملها، فترك علي بن أبي طالب ينام في فراشه ويتغطى ببرده، واستعان بأحد المشركين- بعد أن أمنه- ليدله على الطرق الفرعية التي قد لا تخطر في

(١) صحيح البخاري باب الخوخة والممر في المسجد (١/ ١٠٠ح ٤٦٦).

بال الأعداء، وأقام في الغار ثلاثة أيام متخفيا، إلى آخر ما عبّأه من الاحتياطات المادية التي قد يفكر بها العقل، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله عز وجل لا ينافي استعمال الأسباب المادية التي أراد الله عز وجل بعظيم حكمته أن يجعلها أسبابا.

٣- وفي تخلف علي رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم في أداء الودائع التي كانت عنده إلى أصحابها دلالة باهرة على التناقض العجيب الذي كان المشركون واقعين فيه. ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويرونه ساحرا أو مخادعا لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصدقا، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم التي يخافون عليها إلا عنده! .. وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به وخوفا على زعامتهم وطغيانهم من اتباعه[1].

٤- إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائمًا، وأن التخطيط جزء من السنّة النبوية وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم وأن الذين يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنّة أمثال هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين.

فعندما حان وقت الهجرة للنبي صلى الله عليه وسلم وشرع النبي صلى الله عليه وسلم في التنفيذ نلاحظ الآتي:

---

(١) فقه السيرة للإمام البوطي (ص ١٣٧- ١٣٩).

*وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلا: أ- جاء صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر في وقت شديد الحر- الوقت الذي لا يخرج فيه أحد- بل من عادته لم يكن يأتي فيه، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ب- إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم أثناء مجيئه للصديق، وجاء إلى بيت الصديق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم.

ج- أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يُخرِج مَنْ عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

د - وكان الخروج ليلاً ومن باب خلفي في بيت أبي بكر.

هـ- بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً ما دام على خلق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها.

* انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل من هؤلاء الأفراد وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول، فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم، وصرفتهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى خرج في جنح الليل

تحرسه عناية الله وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة بمضجع الرسول صلى الله عليه وسلم فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائماً، مسجى في بردته في حين النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد دبرت احتياجات الرحلة تدبيرا محكما ووزعت الأدوار على أصحابها بدقة:

أ- علي: رضي الله عنه ينام في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم ليخدع القوم، ويُسلَّم الودائع ويلحق بالرسول.

ب- وعبد الله بن أبي بكر: صاحب المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

جـ- وأسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنون المشركين بحثاً عن محمد صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

د- وعامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كيلا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد والتموين.

هـ- وعبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير، ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعقولة أخذًا قويًّا حسب استطاعته وقدرته .. ومن ثم باتت عناية الله متوقعة.

٥- الإيمان بالمعجزات الحسية: في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك -على ما روي- نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدعاة ألا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوته ورسالته عليه السلام.

٦- جواز الاستعانة بالكافر المأمون: ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمن بدعوتهم، ما داموا يثقون بهم ويأتمنونهم على ما يستعينون به معهم، فقد رأينا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر استأجرا مشركاً ليدلهم على طريق الهجرة ودفعا إليه راحلتيهما وواعده عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وثقا به وأمناه، مما يدل على أن الكافر أو العاصي أو غير المنتسب إلى الدعاة، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم، كأن تربطهم رابطة القرابة، أو المعرفة القديمة أو الجوار، أو عمل معروف، كان قد قدمه الداعية لهم، أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية، مثل الأمانة وحب عمل الخير إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديرية يترك تقديرها إلى فطنة الداعي ومعرفته بالشخص[١].

٧- دور المرأة في الهجرة: وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة كان لها فضل كبير ونصيب وافر من الجهاد: منها عائشة بنت أبي بكر الصديق التي حفظت لنا القصة

(١) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠٨).

ووعتها وبلغتها للأمة، وأم سلمة المهاجرة الصبور، وأسماء ذات النطاقين التي ساهمت في تموين الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله؟ فقد حدثتنا عن ذلك فقالت:"لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر - رضي الله عنه - أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي قالت: ثم انصرفوا ... » [(١)].

فهذا درس من أسماء رضي الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم!. وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال:" والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه»، قالت: «كلا يا أبت، ضع يدك على هذا المال، قالت: «فوضع يده عليه»، فقال: «لا بأس، إذا كان ترك الكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم»، «قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك" [(٢)].

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًّا هذه الأحجار التي كومتها لتطمئن لها نفس الشيخ، إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، وورثهم يقيناً وثقة به لا حد لها، وغرس فيهم

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٧).

(٢) مسند أحمد (٤٤/ ٥٢٠ح ٢٦٩٥٧)..

همة تتعلق بمعالي الأمور، ولا تلتفت إلى سفافها فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر، وقل أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلا، هُن في أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله.

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة لا تشكو ضيقاً، ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسوده بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بركة، المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان [١].

٨- الراحلة بالثمن :لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يركب الراحلة حتى أخذها بثمنها من أبي بكر - رضي الله عنه -، واستقر الثمن ديناً بذمته، وهذا درس واضح بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على أحد في وقت من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كل شيء. إن يدهم إن لم تكن العليا، فلن تكون السفلى، وهكذا يصر عليه السلام أن يأخذها بالثمن [٢].

(١) الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٨).

(٢) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (١/ ٢٧٩- ٢٨٤).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فالسيرة النبوية هي سيرة أعظم الخلق وإمام المرسلين صلى الله عليه وسلم، ولو أنني منحت ريشة من ذهب، وأعطيت قدرة التعبير والتصوير، ما استطعت الإحاطة بكل ما تعرض له صلى الله عليه وسلم من مواقف، وما أثر عنه صلى الله عليه من مأثر وصفات، وإنما هو جهد المقل المعترف بالعجز والتقصير.

وفي هذا الكتاب شرح واف للعديد من جوانب سيرته صلى الله عليه وسلم في المرحلة المكية وما قبلها، حيث تم تسليط الضوء على أهم الأحداث التي وقعت خلال تلك المرحلة، مع بيان الدروس والعبر المستفادة منها.

كما أنه يقدم إجابات شافية عن كثير من الأسئلة التي تدور في ذهن المسلم حول سيرته صلى الله عليه وسلم.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء الصراط

المصادر والمراجع

الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان. للإمام أبى حاتم محمد بن حبان البستي بترتيب الأمير علاء الدين على بن بلبان الفارسى. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية، سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ ه، ط: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ)، المحقق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، محمد بن محمد العواجي، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

تاريخ بغداد أو تاريخ مدينة السلام. للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ط دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ط: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط: الأولى، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) - (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م).

التوقيف على مهمات التعاريف؛ زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت-القاهرة، الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

الجامع الصحيح للسيرة النبوية، الأستاذ الدكتور سعد المرصفي، ط: مكتبة ابن كثير، الكويت، ط: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

الجامع الصحيح من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى. ت (٢٥٦هـ) ت د. مصطفى ديب البغا. ط دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ط دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، المؤلف: محمد حسين هيكل (المتوفى: ١٣٧٦هـ).

الخصائص الكبرى، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت.

دراسة تحليلية لشخصية الرسول، د. محمد قلعجي، ط: دار النفائس، بيروت، لبنان، الأولى ١٩٨٨م.

دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (ت ٤٥٨هـ) بتحقيق الدكتور عبد المعطى قلعجى. ط دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (المتوفى: ١٤٢٧ه، ط: دار الهلال - بيروت (نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى.

الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت: ٥٨١هـ، ت: عمر عبد السلام السلامي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

سنن أبى داود. للإمام الحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى (ت ٢٧٥هـ) ط دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

سنن الدارقطنى. للإمام على بن عمر الدارقطنى (ت ٣٨٥هـ) ط دار المعرفة. بيروت. لبنان. تحقيق: السيد عبد الله هاشم المدنى.

سنن الدارمى. للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥هـ) تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي ط دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، الأولى ١٤٠٧-١٩٨٧م.

سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار، ط: دار الفكر – بيروت، الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ)، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الثانية - ١٤٢٧هـ .

السيرة النبوية - دروس وعبر، مصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ)، ط: المكتب الإسلامي، الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

السِّيرةُ النّبوية – عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، ط: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، السابعة، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ت: مصطفى عبد الواحد،لناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.

السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، د. أكرم ضياء العمري، ط: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السادسة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، د. أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السادسة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، محمد بن مصطفى بن عبد السلام الدبيسي، ط: رسالة دكتوراة، كلية الآداب - جامعة عين شمس، القاهرة، إشراف: الأستاذ الدكتور عفت الشرقاوي، عام: ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، المؤلف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الثامنة - ١٤٢٧ هـ.

السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣ه، ط: دار القلم – دمشق، الطبعة: الثامنة - ١٤٢٧ هـ.

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، (قراءة جديدة)، المؤلف: أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، صحّحه، وعلق عليه الحافظ السيد

عزيز بك وجماعة من العلماء، الناشر: الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٧ هـ .

السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد غلوش، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

السيرة النبوية. لابن هشام. ت: مصطفى السقا، وآخرون.ط: دار المعرفة- بيروت.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، ط: دار الفيحاء – عمان، الثانية – ١٤٠٧ هـ.

صَحِيحُ الأَثَر وجَمِيلُ العبر من سيرة خير البشر (صلى الله عليه وسلم)، محمد بن صامل السُّلَميُّ وآخرون، ط: مكتبة روائع المملكة – جدة، الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

صحيح السيرة النبوية، إبراهيم بن محمد بن حسين العلي الشبلي الجنيني (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، تقديم: د. عمر سليمان الأشقر، ط: دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى، (ت٢٦١هـ) ت: محمد فؤاد عبد الباقى، ط: دار إحياء التراث – بيروت.

الطبقات الكبرى. لمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي المعروف بابن سعد.(ت٢٣٠هـ) ط دار صادر. بيروت. اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية، موسى بن راشد العازمي، تقريظ: الدكتور محمد رواس قلعه جي، الشيخ عثمان الخميس، المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (المتوفى: ٧٣٤هـ)، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، الناشر: دار القلم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤/ ١٩٩٣.

فتح الباري. للحافظ ابن حجر العسقلاني.ط دار مصر للطباعة.الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

الفصول في السيرة، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ)، ت: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ.

فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محّمد سَعيد رَمضان البوطي، ط: دار الفكر – دمشق، الطبعة: الخامسة والعشرون - ١٤٢٦ هـ.

فقه السيرة النبوية، منير محمد الغضبان، ط: جامعة أم القرى، الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

فقه السيرة، محمد الغزالي السقا، ط: دار القلم – دمشق، ت: الشيخ الألباني، ط: الأولى، ١٤٢٧ هـ.

القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار (المتوفى: ١٤١١هـ، ط: دار الندوة الجديدة بيروت – لبنان.

لسان العرب. لجمال الدين أبى الفضل محمد بن مكرم بن على المعروف بابن منظور (٦٣٠- ٧١١ه) ط دار صادر - بيروت – لبنان، ب د ت.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. تأليف على بن أبى بكر الهيثمى. ت (٨٠٧ه) ط دار الريان - مصر ١٤٠٧ه.

المستدرك على الصحيحين. للإمام أبى عبد الله الحاكم النيسابوري وبذيله التلخيص للحافظ الذهبى. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. ط دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى. ط مؤسسة قرطبة – مصر.

معجم البلدان. للإمام شهاب الدين أبى عبد الله بن ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) تحقيق/ فريد عبد العزيز الهندى. ط دار الفكر. بيروت. لبنان.

المعجم الكبير. لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى (ت ٣٦٠هـ) تحقيق/ حمدى عبد المجيد السلفى. ط مكتبة العلوم والحكم – الموصل. الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

معجم مقاييس اللغة لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون. ط دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م.

المغازي، المؤلف: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، الناشر: دار الأعلمي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٩/ ١٩٨٩.

مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أحمد إبراهيم الشريف، ط: دار الفكر العربي.

الملل والنحل، لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ت: محمد كيلاني، ط: دار المعرفة، بيروت ١٤٠٤هـ.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. لأبي الفرج بن الجوزي. ط دار صادر–بيروت. الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ.

المنهج الحركى للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان (المتوفى: ١٤٣٥هـ)، ط: مكتبة المنار – الأردن – الزرقاء، الطبعة: السادسة، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م.

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المؤلف: أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، الناشر: المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر.

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري (المتوفى: ١٣٤٥هـ)، ط: دار الفيحاء – دمشق، الطبعة: الثانية - ١٤٢٥ هـ.

الهجرة النبوية - دراسة وتحليل، المؤلف: محمد السيد الوكيل،ط: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: السنة الثانية عشرة - العدد الأول - محرم صفر ربيع أول ١٤٠٠هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد.	٧
الفصل الأول: أحوال العرب قبل الإسلام	١٨
الفصل الثاني: بين يدي مولده صلى الله عليه وسلم	٤٥
الفصل الثالث: من المولد الشريف إلى البعثة	٥٥
المبحث الأول: النسب الشريف	٥٥
المبحث الثاني: زواج عبد الله بآمنة وحملها	٥٧
المبحث الثالث: رضاعه صلى الله عليه وسلم	٥٩
المبحث الرابع: حادثة شق الصدر .	٦٤
المبحث الخامس: وفاة أمه، وكفالة جده ثم عمه	٦٦
المبحث السادس: حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة	٦٨
المبحث السابع: بين يدي بعثته صلى الله عليه وسلم.	٨٧
الفصل الرابع: من البعثة إلى الهجرة المباركة	٩١
المبحث الأول: حب النبي صلى الله عليه وسلم للخلاء	٩١
المبحث الثاني: مرحلة الدعوة السرية	١٠٣
المبحث الثالث: مرحلة الجهر بالدعوة	١٠٩
المبحث الرابع: الهجرة إلى الحبشة	١٢٢
المبحث الخامس: المقاطعة العامة .	١٣٧
المبحث السادس: عام الحزن .	١٤٦
المبحث السابع: رحلة الطائف .	١٥٢

المبحث الثامن: رحلة الإسراء والمعراج .	١٦٥
المبحث التاسع: بيعتا العقبة .	١٨٧
المبحث العاشر: الهجرة إلى المدينة .	٢٠٤
الخاتمة .	٢٣٠
المصادر والمراجع	٢٣١
الفهرس.	٢٣٩

****

****

****

****

******

****

**

*